دراسة جغرافية
١٨٦٢م - ١٨٦٣م

رحلة شاهد عيان للجزيرة

الشواهد الجغرافية تدل

كلمة..

هذا البحث او المشاهدات اقرب ما يكون الى التقرير الذى يعده بعض المبعوثين لاهداف معينـة.. وهو على الرغم من دقته المتناهية الا انه يشير الى ان المهمة التى كان الرحالة الانجليزى يقوم بها هى شىء آخر غير البحث الجغرافى. فقد تنكر كما قال هو فى هيئة طبيب كما انه حشد كما كبيرا من المعلومات عن منطقة تعتبر من المناطق الصعبة بالنبسة للاوروبيين وحتى بالنسبة لغيرهم فى ذلك الزمان. الرحلة تمت سنتى ١٨٦٢م و١٨٦٣م وتليت الملاحظات فى ٢٢ فبراير ١٨٦٤م وسجلت فى مجلة الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن وان كان هذا لا يمنع من ان تقارير اخرى سرية قد اعدت اثناء الرحلة. والبحث مع ما يقدمه من معلومات ومشاهدات غاية فى الدقة ويلقى بعض الضوء على طبيعة المبعوثين الانجليز الذين جابوا الشرق كله خلال القرن التاسع عشر وقبله والذين يعتبرون مقدمات الاستعمار الذى وقع بعد ذلك..»

الوثيقة

العروبة والبحرين منذ أكثر من ١٠٠ عام

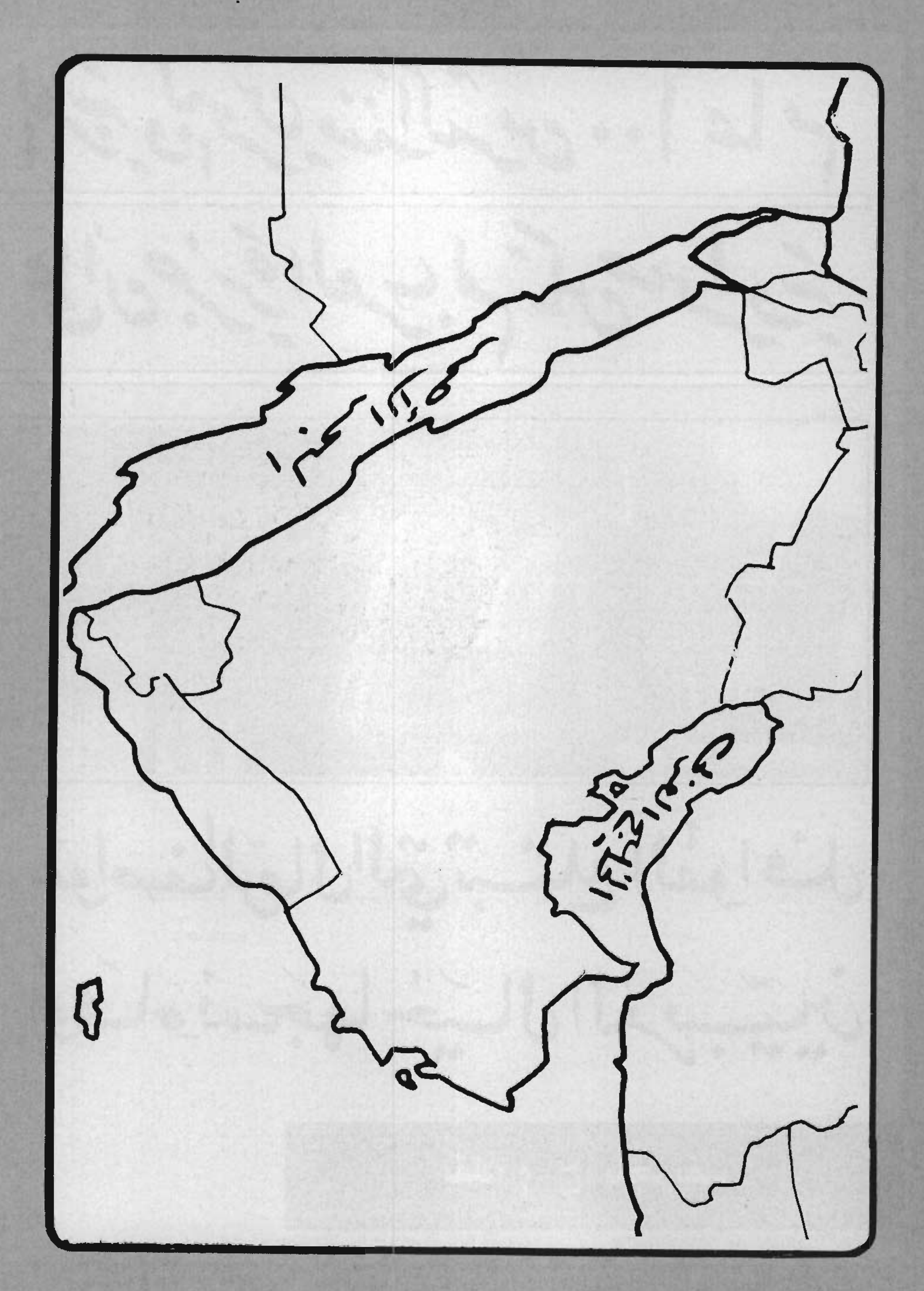
على أن جزيرة العرب لم تكن صحراوية



عواصف الرمال التي تبتلع القوافل

أوهام نسجها خيال الغربيين

بقلم: و. ج. بلجريف



ان الطريق التى سلكتها اثناء عبورى لشبه الجزيرة العربية من غزة الى مسقط، مارا بأكبر عرض لهذه البلاد، قد هيأت لى فرصا خاصة لملاحظة الارض وسكانها. وان بعض الملاحظات التى نجمت عن تلك الرحلة قد تساعد على ملء تلك الفجوات التى توجد فى نظرتنا الى الجزيرة العربية.

واننى لاشعر بأن نظرتى ستكون غير كاملة، وانها ناقصة تماما فى بعض المواضع. ويرجع ذلك الى الظروف التى تم فيها بحثى واستقصائى. واذا كان قد تهيأ لى فى رحلتى الفرص الكثيرة والحرية الكبيرة للقيام بملاحظات جاء بعضها عن طريق التجربة الشخصية والبعض الآخر عن طريق الاستفسار من مصادر موثوقة، فلقد افتقرت فى ظروف ماسة الى الدقة المتناهية. ووفر تنكرى كطبيب تسهيلات كثيرة لمشروعى، ونجحت نجاحا تاما فى منع ريبة المواطنين او تخفيف هذا الشك، واستطعت ان ازور مطمئنا بعض الاماكن ذات الاهمية الخاصة، وابقى فيها او بالقرب منها من الزمن ما يكفى لغرضى. ولقد وفر لى ايضا فرصا مناسبة للقيام بالاستفسارات وجمع المعلومات عن المناطق التى لا استطيع ان اصل اليها او التى امر بها فى طريقى دون ان اخشى اثارة سوء ظن المواطنين المعتاد او ان ابدو بمظهر خطر من المبالغة فى حب الاستطلاع. ولكن هذا التنكر ذاته حرمنى من ان اصطحب معى ادوات حسابية وقياسية لا غناء عنها فى الملاحظات الدقيقة وحرمنى من الحرية اللازمة للرسم والتصوير، بل ومن اخذ الملاحظات فى الوقت المناسب مهما كانت هامة، بينما كانت الحكمة تفرض على احيانا ان اقلل من استفساراتى وبحثى واجعلها اقل دقة مما لو كنت فى ظروف اخرى وذلك لكى لا ابدى شيئا يفضح تنكرى بشخصية طبيب رحال.

أما المناطق التى زرتها بشخصى فهى أولا - الصحراء التى تقع بين معان والجوف، وقد كانت طريقى تختلف عن الطريق التى سلكها السيد (ولن) فقد كانت طريقى فى معظم الاحيان الى الجنوب من طريقه. وثانيا الجوف نفسه وما جاوره. وثالثا الطريق من الجوف الى شمر سالكا نفس الطريق التى سلكها ولن. ثم مدينة حايل وجزءا كبيرا من المنطقة المجاورة. ورابعا الطريق من هناك الى مدينة البريدة فى القصيم وجزءا كبيرا من المنطقة وبعض مدنها الرئيسية كعنيزة وغيرها. وخامسا الطريق من بريدة الى السدير ومعظم المنطقة الاخيرة. وسادسا منطقة عارض وعاصمتها الحقيقية الرياض وهى مقر ملوك الوهابيين، والمدينة الخربة الآن وهى الدرعية الخ. وسابعا جزءا من مقاطعتى اليمامة والافلاج. وثامنا الطريق من هناك والتى تتجه الى الشمال فتصل الى منطقة الحريق والى مدينة الهفوف فى مقاطعة الاحساء. وتاسعا جزءا كبيرا من تلك المقاطعة والقطيف وما جاورها. وعاشرا جزر البحرين. والحادى عشر قطر وساحل اللؤلؤ. والثانى عشر مدينة الشارقة وقنة البحر حتى رأس مسندم ثم الى الجنوب الى بطينة حتى صحار. والثالث عشر ذلك الجزء من عمان الذى يتصل بسماعيل ومسقط والزيب الخ .

وقد أوردت بين الحين والآخر نتفا عن اجزاء من الجزيرة لا تدخل ضمن المناطق التى ذكرتها، وقد جاءت نتيجة لسؤالى لنفسى وللمواطنين وللبدو. وفى الحقيقة ان على ان استثنى ساحل الحجاز واليمن، فلقد مكنتى الملاحة من ان اتكلم عنه كثيرا.

وقبل ان ابدأ حديثى اود ان اقول بضع كلمات عن المعالم الجغرافية والملامح الرئيسية لشبه الجزيرة العربية، ولا سيما عن الصحراء: طبيعتها وحدودها. والهدف الرئيسى من وراء هذا هو سد بعض الثغرات التى تركها الرحالة السابقون من امثال (بوركهارت) و (ويلسند) و(ولن) وغيرهما فلقد كتبوا تقارير دقيقة ولكنها غير كاملة ولذا سأصف نجد والمناطق الوسطى من الجزيرة العربية وصفا اكثر تفصيلا، ثم اصف بعد ذلك المناطق الشرقية وعمان.

ان الفكرة الشائعة التى اعطاها لنا الرحالة وكثير من المصورات الجغرافية ايدت تلك الفكرة الى حد بعيد بل لقد اشتملت عليها وقالت عن الجزيرة العربية انها مساحة شاسعة من الصحراء، تناثر عليها بعض البدو المتنقلين، وبها بعض الجبال الصخرية القاحلة، والخيام السوداء والسهول الرملية وبعض اشجار النخيل او الجمال لتكمل الصورة. واذا اخذت هذه الفكرة عن الجزء الاكبر من شبه الجزيرة فهى بعيدة عن الحقيقة. ولا شك ان الصحراء تشتمل على جزء معين منها، ولكن هذا

الجزء هو الذى يعرفه الرحالة الاوربيون - اى انهم لا يعرفون سوى الحواشى. وحقا هناك بعض البقع الصحراوية وساتكلم فيما بعد عن طبيعتها وامتدادها، وهذه البقع القاحلة تتسع كثيرا فى الجنوب وتطغى على مساحة شاسعة فى الداخل، ولكن هذه جميعها يمكن اعتبارها شواذ لا قاعدة عامة. ان الطابع الحقيقى للجزيرة العربية انها ارض مستوية شاسعة خصبة فى الاصل وهى اما مزروعة أو قابلة للزراعة على الاقل، وتروى وديانها ريا حسنا، وليست سهولها جافة - وهى ارض عامرة بالمدن والقرى والحياة والسكان، وحول كل هذا دائرة صحراوية تضيق احيانا ضيقا كبيرا، فلا يتجاوز عرضها ٥٠ او ٦٠ ميلا، ولكنها تتسع احيانا اخرى فى الشمال وفى الجنوب، واخيرا تحيط بكل هذا سلسلة من الجبال تتنوع فى طابعها وفى ارتفاعها، ولكنها بوجه عام منخفضة وصخرية وقاحلة ويحدها ساحل قاحل فى معظم الاحيان، مع ان اليمن وسواحل عمان والاحساء تقدم ادلة رائعة على الخصب وشواهد ملموسة على عدم اطراد القاعدة.

ثم ان هذه الصحراء نفسها يمكن ان تنقسم الى قسمين تلك الصحراء التى هى صحراء لانه ليس هناك فى الوقت الحاضر من يحتلها او يزرعها ولذا يمكن ان نصفها فنقول انها «مهجورة»، وهناك الصحراء، بكل ما فى الكلمة من معنى، بلا امل فيها، ومهجورة وقاحلة ولا يمكن اصلاحها.

ويعم القسم الاول من الصحراء او الصحراء المهجورة، الحدود الشمالية والغربية، ويعم القسم الثانى المناطق الشرقية والجنوبية.

ولنبدأ بالكلام عن الصحراء التى توالى الجهة الشمالية والجهة الغربية. فهنا نجد طبقة سفلى من الصخور، ومعظمها صخور جرانيتية، وفوقها تربة رملية او من الحصى، وهى توفر بدرجة متفاوتة الظروف التى تسمح بامكانية الحياة والخضرة، ولكنها ليست ابدا خالية من هذين النوعين - الحياة والخضرة. وتتوقف هذه الدرجة على وجود الماء فوق السطح او على مسافة قريبة منه. واحدى السمات الخاصة بالجزيرة العربية - لسوء الحظ - انه ليس هناك فى هذه الارض الشاسعة نهر يصح ان يسمى باسم نهر. واننى لا علم ان بعض الجغرافيين العطوفين قد اعطوا لنا بعض اسماء الانهار، ويؤسفنى ان اقول انهم كانوا بذلك اكرم من الطبيعة. بل قلما تمر ببعض الجداول، اللهم الا فى الاراضى المنخفضة بالقرب من الساحل الشرقى وبين جبال عمان، كما سنرى فيما بعد.

والسبب فى هذا واضح. والجبال هى خزانات البلاد عادة، وكلما اقتربت تلك البلاد من خط الاستواء كانت الحاجة الى ارتفاع الجبال أكثر لكى توفر المياه طوال

السنة ولكن الجزيرة العربية بإستثناء عمان فقط ـ تفتقر الى جبال ذات ارتفاع يكفى لهذا الغرض. وسلسلة التلال القريبة من الساحل منخفضة كثيرا بوجه عام، ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ و١٠٠٠ قدم وقلما تزيد عن ذلك، اما الوسط فهو مجرد سهوب او هضبة يكاد لا يصل ارتفاعها الى ٣٠٠ قدم فوق سطح البحر، مع ان السكان يطلقون عليها اسم الجبار تجاوزا.

ومن ثم فان اى مطر ينزل على تلك السهوب، وقد يهطل المطر بكميات غزيرة فى بعض الاحيان ولا سيما فى الشتاء واوائل الربيع، سرعان ما تمتصه الاخاديد التى توجد فى التربة المفككة الذرات او فى الوديان المتقاطعة الرملية، وهكذا تتجمع المياه فى باطن الارض بدلا من ان تتجمع فى ظاهرها. وهناك الى جانب ساحل البحر فقط حيث ينتهى طرف الهضبة فجأة او يتدرج، نجد ينابيع هنا وهناك مصدرها المياه الجوفية التى تجمعت وسط البلاد. وبما ان الساحل نفسه محاط عادة بسلسلة ضيقة من الجبال قريبة من الساحل فقلما تصل هذه النهيرات الى البحر، او تشكل انهارا تستأهل ان تجد مكانا فوق خريطة الجغرافى.

وسأتحدث حديثا اكثر تفصيلا عن وفرة المياه الجوفية فى وسط الجزيرة العربية ووسائل الرى المستعملة وذلك فى سياق حديثى هذا.

وينشأ عن هذه الاسباب عينها جفاف مماثل بل اكثر للمياه التى فى ظاهر الارض فى الصحراء نفسها. فان مناطقها ترتفع ارتفاعا معقولا عن سطح البحر ثم انها تحاط كما اسلفنا بسلسلة من الجبال ولكنها منخفضة اكثر من سهوب الوسط، واستطيع ان اقول من قياس سريع وظنى ان متوسط ارتفاعها يتراوح ما بين ٥٠٠ و١٠٠٠ قدم عن سطح البحر وربما اكثر من ذلك بقليل. وهكذا فهى ليست مرتفعة ارتفاعا كافيا حتى تجتذب الغيوم العابرة وليست منخفضة حتى تسمح للمياه الجوفية بالظهور فيها، وتربتها مفككة وكثيرة الشقوق ومن الطبيعى ان تبقى اكثر جفافا من الهضبة الوسطى او السواحل نفسها.

وعلى كل حال فان فى هذه الصحراء او الارض المهجورة ماء، وان كان تحت سطح الارض وعلى عمق مناسب. ولقد رأيت آبارا يزيد عمقها على ١٠٠ قدم، ويصل الماء فيها الى مستوى قريب من سطح الارض فى بعض الاحيان، لا سيما ـ كما يجب ان نتوقع ـ فى الاراضى المنخفضة من هذه الاصقاع. ويدل فى بعض الاحيان الخط الطويل من الآبار على وجود نهير فى جوف الارض. وهكذا توجد المياه على امتداد وادى سرحان، من حوران فى سوريا الى الجوف، على عمق ١٠ او ١٥ قدما بل احيانا على عمق اقل من ذلك. ولقد حفرت الآبار فى اماكن اخرى مثل وادى فاروق، فى الجهة

المقابلة من شبه الجزيرة، الى عمق ١٠٠ قدم واكثر دون الحصول على قطرة ماء.

ويلاحظ كل من يجوب هذه المناطق كثرة الآبار المعطلة او شبه المدفونة ويلاحظ ان جميع الآبار العميقة تقريبا، التى انفق عليها جهد كبير ومهارة فائقة، ترجع الى زمن قديم نسبيا. وتلقى هذه الحقائق ضوءا على ازدحام هذه البلاد بالسكان فى السابق، وتؤكد الفكرة القائلة بان ما يعتبر الآن ارضا صحراوية لم يكن فى اغلب الاحيان كذلك، ولا يلزم ان تكون صحراوية الآن، كما تشير الى ذلك صفاتها الطبيعية.

والى جانب هذا نجد ان الرطوبة الناجمة عن هذه المياه الجوفية المخزونة، حتى فى المناطق التى لا توجد فيها آبار، تظهر تدريجا على سطح التربة، وتساعد على نمو جدى معقول للحشائش والاعشاب والشجيرات بل للاشجار، هذا فى المناطق التى لا تكون فيها المياه الجوفية على عمق كبير أو التى تحول فيها الطبقة الصخرية أو الطبقة التى يستحيل ان تنفذ المياه منها، دون ظهور الماء. وقد ذكر ولن «الصمغ» من الاعشاب حينما وصف الصحراء المجاورة للجوف ثم شجيرة «المسع» ذات الاوراق البيضاوية الصغيرة، وهى ذات ثمار شبه حامضة تشبه الى حد بعيد الزبيب الاحمر الذى يوجد فى هذه المنطقة فى حجمها ولونها وطعمها.

وتتميز الصحراء الشمالية الغربية بهذه النباتات. ونجد فى الجنوب نباتات الخرتاء التى تستعمل اوراقها فى الدباغة، ثم القتاد الشوك، والسدر بتوته الصغير الجاف، والنبق، وهو شجيرات قصيرة ملفوفة تكون محملة - وقت الاثمار، بثمار كثيرة تشبه التفاح الصغير الحجم، وقد رأيت مثل هذه الشجيرات فى الهند الشمالية - وهذه النبتة تكثر فى الجهات الجنوبية الشرقية من الصحراء ثم شجر النبع الرشيق، وكثير من الشجيرات الاخرى والنباتات، ويشتمل بعضها على خواص طبية او مخدرة، وتشير اشارة واضحة الى امكانيات الارض الزراعية. وتنمو الاعشاب فى كل مكان بين الحصى ابان الربيع ويمكن ان نرى سيقانها الجافة الصفراء تهتز فى احضان الخريف.

وتكون هذه الاصقاع الجزء الاكبر من الحلقة الصحراوية فى الشمال والغرب، وتوجد بصفة اقل فى الجزء الشرقى من نفس الحلقة، وقلما توجد فى الجنوب. وهى الملاذ المعتاد لقبائل البدو الذين يمنعهم كسلهم من الاستفادة من ثروات التربة المدفونة، بينما يهىء لهم سطحها المراعى دون ان يبذلوا جهودا فى الحراثة، ويهىء لقطعانهم وسائل كافية للحياة وان كانت نزرة وقليلة. ومن ثم يتجمع اصحاب القطعان الذين يتصفون بالتنقل وبقطع الطرق فى اطراف شبه الجزيرة، ولا سيما عند حدودها الشمالية والغربية. وقد استنتج الرحالة من هذه

الظروف ـ وقليل منهم من اجتاز النطاق الصحراوى ونفذ الى داخل البلاد ـ ان الارض ومن عليها مشابهة لما وجدوا على الاطراف. ومن ثم نشأت المبالغات فى الكلام عن البدو من حيث القوة والعدد، وقد بخسوا شبه الجزيرة هذه حقها.

وفى الحقيقة فإن البدو، كالأصقاع التى يتنقلون فيها، لا يشكلون اكثر من حلقة مفرغة تحيط بمنطقة متوسطة مختلفة كل الاختلاف فى طابعها وسكانها. وعلى هذا فعندما نتوغل فى المناطق الداخلية نجد ان الزراعة تظهر مرة اخرى ثم تزداد واخيرا تعم المنطقة، بينما يسير البدو فى تدرج عكسى، اذ هم يقلون بسرعة حتى ينعدموا تماما.

ونجد فى بعض المصورات الجغرافية القديمة كلمة مناطق «آكلى لحوم البشر» عند نهاية المناطق المكتشفة، ولعلهم بذلك يبررون عدم الاستكشاف لها.

ولا يترك البدو من العرب الرحالة ولا سيما الاوروبيين منهم، يمرون دون ان يلحقوا بهم شيئا من الاذى، وهكذا ظل هؤلاء آخر ما وصل اليه الاستكشاف. ولكن لنرجع الى موضوعنا ثانية.

لقد قلت ان هذه الارض المهجورة لا الصحراوية تقع فى الدرجة الاولى فى شمال وغرب الجزيرة العربية اى فى المنطقة التى تفصل سوريا عن الاراضى العربية المرتفعة أو نجد وفى الحجاز على طريق الفجاج المشهورة حتى حدود مكة. وقد وصف كثير من الرحالة هذه المنطقة الاخيرة وصفا كافيا ان لم يكن مسهبا، ويعطى لنا (ولن) صورة صحيحة ودقيقة عن النطاق الشمالى بين سوريا والجوف ووادى سرحان.

ولكننا عندما نقترب من مستوى الجوف نلاحظ رقعا من الرمال البيضاء اللامعة، وهى فى أول الامر نادرة فى هذا السهل الاسود ذى الحصى، ولكنها تزداد كلما تقدمنا صوب الشمال حتى تلتقى كلها اخيرا الى الاسفل من الجوف وتكون منطقة رملية مستمرة واحدة، بينما يشوب بياضها احيانا شىء من الصفرة او اللون الاحمر البرتقالى. وهنا تبدأ المنطقة التى يسميها اهلها «بالنفود» اى «الممرات» وذلك لانه يجب ان يمر بها كل من يريد ان يتوغل فى الداخل. وقد قال (ولن) ان كلمة «النفود» ترادف «النقص» او «فقدان وسائل الرزق». وقد تحتمل الكلمة مثل هذا التفسير، ولكنها لا تحتمله هنا.

وتتألف «النفود» او الممرات الرملية من خطوط طويلة وعريضة ـ يكاد المرء ان يسميها انهارا من الرمال المفككة والعميقة وتكون عادة مكومة على شكل ربوات او امواج واتجاهها الدائم من الشمال الى الجنوب ـ وقد تظهر بعض الخضرة او لا تظهر فوق هذا السطح المزعزع.

وقد اعطى ولن، الذى لم يستطع متابعة رحلته الى الوسط والجنوب، عدة تخمينات سديدة حول أصل هذه

الاصقاع الرملية الواسعة وحول وجودها وعددها وامتدادها، كما قدم وصفا دقيقا ومفصلا عن تلك الاجزاء التى عرفها. ولكن ظروف رحلته لم تجعله يوفق فى تفسير اصل «النفود» الحقيقى، فلم يستطع ان يفسر الظاهرة تفسيرا شافيا، تلك الظاهرة التى اعتمد عليها فيما اعطاه لنا من تأملات هامة.

وعندما نتابع البحث والاستقصاء فى الجنوب سرعان ما نشعر بالطابع الحقيقى لهذا الصقع. والحقيقة ان هذه الانهر الرملية او «النفود» ليست سوى مداخل او قد نقول فروعا، الى الصحراء الرملية الجنوبية الكبرى التى تحجز المنطقة فى الجنوب الغربى وفى الجنوب والشرق عن الصحراء الصخرية الشمالية التى سبق وصفها، وهكذا تكمل دائرة شبه الجزيرة العربية. وهذه هى «الدهناء» او «النار الحمراء» كما يسميها العرب، وتتجمع هذه الكمية الضخمة من الرمال الى الاسفل من خط عرض ٢٣ و٢٢ والى الجنوب من الحريق ووادى الدواسر حتى تصل الى حضرموت والى حدود عدن نفسها. ويمتد ذراعا هذه الصحراء الى الشرق والى الغرب ويتجهان صوب الشمال حتى يلاقيا ذلك الجزء المنحنى أو الهابط من الصحراء العليا او الصخرية حيث يتركان ما يقرب من ثلث الدائرة يلتف حول المقاطعة الوسطى، بل تكاد تقطعها فى بعض الاماكن. ولكن الموضوع يستحق دراسة اوسع لما يلقيه من ضوء على جغرافية الجزيرة العربية.

لقد ذكرت ان «الدهناء» او الصحراء الجنوبية الكبرى تتفرع الى فرعين يمران بغرب الهضبة الوسطى وشرقها ويفصلانها عن الساحل وينتهيان اخيرا بالصحراء الصخرية، او الارض المهجورة فى الشمال.

ويتجه الفرع الشرقى من الدهناء التى تقع وراء عمان ويمر بالجزء الاخير من قطر وهو المنطقة البحرية الواقعة بين عمان والاحساء ويمر بين الحريق والطرف الجنوبى من الاحساء، ثم يتجه الى الشمال تاركا الاحساء الى الشرق منه والحريق واليمامة والعارض واخيرا السدير الى الغرب منه. ويبلغ متوسط عرضه ٨٠ ميلا وان كان لا يزيد عن ٤٠ ميلا فى بعض الجهات، ومنها جهات قد قطعتها بنفسى وطبيعته العامة مماثلة لطبيعة «النفود» التى سبق ان وصفتها وان كانت اكثر اجدابا وثباتا من طبيعة «النفود». وعندما يصل الى خط عرض ٢٨ شمالا، بالقرب من بلاد الكويت الصغيرة على الخليج تبدأ ارضه الرملية بالتحول الى ارض صلبة ثم ينتهى اخيرا بالارض الخراب التى تقع وراء الزبير والبصرة.

اما الفرع الآخر وهو الفرع الغربى فيبدأ من وراء اليمن ووادى نجران ويمر بالطرف الجنوبى من وادى الدواسر، ثم يسير الى الشمال تاركا قلعة بيشة الى

الغرب منه والجزء الرئيسى من وادى الدواسر الى الغرب منه. ثم يتجه الى المشرق حيث يمر امام مقاطعتى الافلاج والوشم ويمر بالطرف الغربى من القصيم. وهذا الفرع بوجه عام اقل اقفارا من الفرع الشرقى بكثير، وهو يفقد كثيرا من وحشة الدهناء كما يفقد اسمها قبل ان يفنى اخيرا فى المنطقة المجاورة لتيماء ذات الارض الطينية والحصى. وتتشعب من هذا الفرع الغربى من الصحراء فروع اخرى تكون «النفود».

وقد اجتزت. كما اجتاز (ولن) ذلك الفرع الشمالى من «النفود» الذى يقع بين الجوف وجبل شمر. وهو يبدأ الى الاسفل من تيماء بالقرب من خيبر ويسير فى اتجاه شرقى فى الشمال وهكذا يفصل ما بين جبل شمر وتيماء وهو طريق الحجاج حتى يصل الى ما يقرب من خط عرض ٢٨° ، ثم يتجه صوب المشرق ويسير بين الجوف وجبل شمر حتى يفصلها فصلا كاملا ثم ينتهى اخيرا فى اصقاع صخرية فى شرقى الجوف عند طرف طريق القوافل العادية من تلك المقاطعة حتى مشهد على. ومتوسط عرضه ٥٠ ميلا تقريبا.

وثانيا عندما نهبط الى الجنوب صوب القصيم نلتقى بواد رملى مشابه للفرع السالف الذكر وان كان اصغر منه ويمر هذا الوادى الى الاسفل من خيبر متجها نحو المشرق وهكذا يسير بين جبل سلمى فى الشمال ومقاطعة القصيم فى االجنوب. وتنتهى هذه «النفود» الثانية فى سهول القصيم الأعلى دون ان تقطعهما قطعا تاما.

وثالثا هناك مدخل آخر، الى الجنوب من الفرعين السالفين، مشابه لهما، وهو يسير فى الاتجاه الشمالى الشرقى ويسير موازيا لتلك السلسلة المنخفضة من الجبال التى يسير معها طريق الحجاج من مكة الى نجد. ويمر الى الأسفل من القصيم حيث يفصله عن الوشم، وبعد ذلك يتجه صوب الشمال على حدود مقاطعة السدير، ويمر بالطرف الغربى من جبل طويق والامتداد المتصل من وادى حنيفة (وهذه اماكن سأفيض فى الحديث عنها فى ملاحظاتى هذه) حتى يتصل اخيرا ويمتزج بالصحراء الصخرية التى تقع الى الشرق من جبل شمر.

وهذه باختصار الثلاثة الممرات الرئيسية او «النفود» فى وسط الجزيرة العربية. وكما رأينا تنشأ جميعها عند الذراع الرئيسى الغربى من «الدهناء» وتكون عنده زوايا قائمة او شبه قائمة. وتسير كلها بين الشمال والشرق متجهة صوب الهضبة الداخلية الكبيرة، وهى تكاد تقطعها وان كانت لا تقطعها كلية، وتتشابه جميعها فى صفاتها مع انها تختلف فى طولها وعرضها كما رأينا.

اما الفرع الشرقى من «الدهناء» فتلصق به من الجانبين سلسلتان عاليتان وهما الطويق من الغرب وسلسلة الأحساء البحرية من الشرق وتتفرع منه

بضعة فروع جانبية داخلية على شيء من الأهميـة. ويبتـدىء أحـدهمـا من تلك الكثبان الرملية التي وراء الحـريق ثم يسير صوب الشمـال بين تلك المقـاطعة واليمامة حتى ينتهي في وادي «سلوى» الذي يقع الى الشرق من الرياض. ومنذ اربعين سنة فنى في هذه «النفود» حسين باشا المصرى مع جزء كبير من جيشـه وكان قد ارسل في حملة ضد تركى والد فيصـل. فقد غـرر بهم المـرشـدون من النجديين حين ورطوا حسينا وجزءا كبيرا من جيشـه وتركـوهم بين هـذه الكثبان الرملية حيث فنوا عن آخرهم من الظمأ والتعب مع ان مياه الحوطة كانت قريبة منهم وهم لا يعلمون. وقد ظلت ملابس واسلحة الضحايا تباع في اسـواق نجد بأسعار بخسة عدة سنوات.

وقد وقع في العشر السنوات الأخيرة حادث لا يقل عن الحادث السالف هولا في «النفـود» التي الى الشمـال من طريق الحجاج في نجد. وكانت الضحايا في هذه المرة جماعة من حجاج الفرس في طريقهم الى مكة. وقد خيموا في مدينة البريدة في مقاطعة القصيم، وكان يحكمها ولا يزال (حتى وقت كتابة البحث) الزعيم النجدى مهنا بأسم فيصل. وقد أثارت وفرة امتعة الحجاج الفرس وغناها جشع مهنا فعمد الى تـأخيرهم في البـريدة منتحـلا عـدة اسباب ثم اقنعهم بترك الجزء الأكبر من امتعتهم وراءهم في كنفه حتى لا يداهمهم الأعـداء الذين يوجـدون ما بـين مكـة والقصيم فينهبـوها. ثم اعـطاهم ابنـه الأكبر ليكون مرشدا لهم، ولقد كان حقا ولدا جديرا بأبيه (ويمكنني ان اذكر في معرض الحديث انه قد اتيح لى ان اعرف الاثنين معرفـة شخصية). فقـد اضلهم هـذا الخـائن عن الطريق وقـادهم الى متاهات من «النفود» لا ماء فيها، وهرب بعد ان تركهم يموتون من الظمأ والحر. وقد فنى معظمهم، اما القليلون منهم ممن اسعفهم الحظ فقد شقوا طريقهم بين هذه المتـاهـات الرمليـة الى البـريـدة حيث وصلوها وقد اسقمهم السغب واضناهم التعب. وهناك قابلهم مهنا فأنكر انكارا شديدا ان شيئـا من امتعتهم او امتعة رفاقهم التعسين موجود عنده، وكان على هؤلاء الباقين ممن قاسوا الخيانة مرتين ان يشقوا طريقهم الى مشهد علي ثم الى بلاد فارس بأسرع ما يمكن.

وقد تعطى هـذه الحوادث فكـرة عن طبيعـة «النفود» العـربيـة ومخـاطرهـا خاصة وسمك الطبقة الرمليـة الكبير لا يقل عن مئات الاقدام، كما استطيع ان أؤكد من القرائن والملاحظات، ولذا كان الماء ومسألة وجوده شيئا مستحيـلا في الجزء الأكبر منها، وان قلة الماء وشـدة الحـر في تلك الاصقـاع وقلة المـراعى والفقدان التام للظل او المـأوى والجهد المبذول في خوض هذه الجبال المتمـوجة ذات الرمال المفككة والمحرقة، كـل هذه تجعل من سلوك هذه الطرق شيئا خطرا ولا سيما في اشهر الصيف الحارة.

ان هذه الصفات القاحلة لا تخلو من استثناءات حسنة ومتفرقة. وتنحسر هذه الأمواج الرملية فى هذا المحيط الرملى بين الحين والآخر على احد الجوانب تاركة حفرة مخروطية الشكل شديدة العمق (ولقد رأيت منها حفرا يبلغ عمقها العمودى ٤٠٠ بل حتى ٥٠٠ قدم) وفى قعرها طبقة سفلى تتكون احيانا من الجرانيت ومن الصخور الكلسية احيانا اخرى، حيث توجد المياه عادة بين شقوقها او فى الآبار التى حفرها العرب. ولما كانت هذه النقط هى الأماكن الوحيدة للراحة والتموين فانها تحدد خط سير المسافر فى هذه المناطق، ولكن القليلين - الذين عرفوا هذه الأماكن بعد خبرة طويلة - هم الذين يعرفون كيف يجدونها، ويزيد المسألة تعقيدا انه ليس هناك من قرائن تشير الى قربها، وحتى على بعد معقول جدا - ومن ثم كانت الحاجة ماسة الى اصطحاب مرشدين مجربين وأمناء لقطع هذه «النفود».

وترتفع احيانا قمة صخرية سوداء وبارزة فوق الرمال وهكذا تقطع ذلك الاطراد الممل فى المنظر مثل الصخرتين المنفصلتين المرتفعتين فى «النفود» والواقعتين فى منتصف المسافة بين الجوف وجبل شمر ويطلق عليهما اعلام السعد. وقد مررنا بهما فى طريقنا جنوبى الجوف وكم أدهشنا شكلاهما الهرميان المتناسبان. وقد مررت فى اثناء طريقى بقمة مشابهة فى «النفود» تتصل بمقاطعة الوشم.

لقد وجدت تموجات الرمال المتناسقة فى موازاتها لمحور الأرض تفسيرا صائبا مأخوذا من عدم المساواة فى الحركة الدائرية للكرة الأرضية عندما تنتقل من القاعدة الصخرية الصلبة الى الرمال المفككة والزلقة التى فوقها. ولما كانت هذه المناطق قريبة الى حد ما من خط الاستواء فان سرعة الدورة اليومية تكون اكبر والظواهر الطبيعية المترتبة عليها اوضح مما هى عليه فى المناطق المقابلة لها فى الشمال. ان الأخاديد الضخمة والمنتظمة فى «النفود» لتختلف عن تلك الاجرف المتغيرة والتى توجد فى اماكن اخرى، وهى تنشأ عن عملية الرياح التى تجعد سطح الرمال فى كل اتجاه حتى تصبح الصحراء كلها وكأنها محيط متلاطم لعبت به عاصفة عاتية فاضطرب بعد ان مرت عليه عدة شهور من الشهور الموسمية المنتظمة.

وخفة الرمال هى على هذا الحال، ولا سيما فى الاتجاه الجنوبى، حتى ان آثار اقدام الجمال تختفى فى الغالب حالما تنطبع على الرمال، بالرغم من ان هذه الحيوانات البائسة تغوص حتى ركبها فى طريقها المضنى. ان العواصف الرملية، كعواصف الغبار فى الهند الشمالية، كثيرة هنا، اما تلك القصص التى تروى عن اعمدة الرمال المتحركة والتى تطوى فى جوانحها فجأة قوافل كاملة، فقد سخر جميع من قابلتهم من البدو من تلك القصص ووصفوها بأنها من نسج خيال

المسافرين. واستطيع ان أؤكد بعد خبرة طويلة فى الصحراء وفى أكثر الأشهر حرارة ومايتبعها، اننى لم اقابل شيئا من هذا القبيل.

ولا تخلو من السراب بكل ما فيه من مظاهر خداعة. وقد واجهتنا مرة ريح السموم المميتة وتمكنا من مشاهدة ظواهرها الغريبة. وسوف لن الجأ الى اعطاء وصف مفصل لقبائل البدو التى تنتقل بين هذه الصحارى وما يجاورها من «النفود»، فالموضوع طويل جدا وليس جديدا كل الجدة. فهذه القبائل هى باختصار كما يلى. الشريعات (وهى قبائل عنيفة جدا) السورية العربية، والحويطات، وبنو عطية وقبيلة بشير، المغيرة فى الشمال، هذا بالاضافة الى القبائل التى تزور المنطقة بين الحين والآخر كقبائل رولى وطىء وصقر وولد الى آخر هذه القبائل. ونجد فى الجنوب الشرقى عشائر كثيرة من امثال عشيرة شمر والمنتفك والمساليخ وبنى لام المفزعين، اما فى الغرب الجنوبى فنجد قبائل مغر وحرب وعن قبيلة قديمة مزعجة هى قبيلة قحطان وقد وجدت فى المناطق الوسطى قبيلة (سبأ) وهى تختلف عن سميتها فى سوريا وقبيلة مطير (وهى قبيلة غنية) وعتيبة قبيلة الدواسر او آل علام، واخيرا وفى الشرق نفسه قبائل العجمان وبنى خالد، وهى عشيرة واسعة الانتشار وبنى حجر. وتتباين هذه القبائل فى عددها وقوتها، ولكنها لا تزيد مجتمعه عن ٤٠٠ الف نفس، وهذا، على الأقل، هو ما وصلنا اليه بعد عد هذه القبائل واحدة اثر الاخرى وجمع عددها. ويوجد بين هذه القبائل فروع واختلافات فى الاسم والصلة لا حد لها، ولكنها ترتبط كلها تقريبا بالقبائل الرئيسية المذكورة. ويكفينا هذا القدر الان، فهناك فى وسط الجزيرة العربية ميدان مهم وجديد ينتظرنا.

وقبل ان اترك الصحراء نهائيا وانتقل الى السهوب وقرى الارض المعمورة يستحسن ان اضيف بضع كلمات عن الصحراء العربية الكبيرة الشاسعة وهى «الدهناء» نفسها. وهى تمتد من قطر وعمان فى الشرق الى اليمن ووادى نجران فى الغرب، وتحدها مناطق الاحساء والحريق والأفلاج ووادى الدواسر من الشمال وحضرموت من الجنوب، وهذه هى حدود هذه القاعدة العريضة من الدائرة الصحراوية.

اما طابعها العام - بالقدر الذى تسمح لى تجربتى الخاصة بالتحدث عنه - فهو مبالغة «للنفود» التى سبق ان وصفناها، بها اصقاع شاسعة ذات ارض يباب لم يمر بها او يزرها حت اكثر البدو تنقلا. ونجد بين الفينة والأخرى «واحات»، وهى عبارة عن جزر صغيرة مطروقة وموجودة فى هذا الخضم من الرمال القاحلة لا سيما فى المناطق التى تبرز فيها الطبقة الجيرية، ويتفجر الماء من بين هذه الشقوق فتنبت حوله اشجار النخيل

القصيرة او شجيرات الغضا المشعشعة التى ورد ذكرها كثيرا فى الشعر العربى. ويقال ان الكثير من هذه البقع تقع على خط يمتد من الجنوب الشرقى من عمان الى اليمن، وتزداد عندما نقترب من حدود حضرموت. وهنا ايضا وكما قيل لى (لأن معرفتى الشخصية للدهناء تنحصر فى المناطق الشمالية والشرقية منها) تظهر قمم صخرية فوق الرمال بين الحين والآخر، ويذكر العرب ان هناك سلسلة كلسية منخفضة تقع فى الشمال الغربى من عمان وتحمل اسم «الاحقاف».

وقد اخذت بعض معلوماتى عن «الدهناء» عن بدويين ذكيين احدهما من قبيلة المناصير والآخر من قبيلة آل مرة، وكانا قد قطعا «الدهناء» فى اعرض نقطة فيها مصادفة ولم يكن هناك اى قصد للكشف من تلك الرحلة. وقد وصفا لى الواحات المذكورة آنفا وانه يسكنها نفر قليل من الزنوج والأحباش، اما الاجزاء البعيدة، فهى كما وصفاها، غير مسكونة ولا يمكن ان تسكن. وقد اخبرنى البدوى المناصيرى انه قد قطع الصحراء من حدود عمان الى حدود اليمن فى ثلاثة شهور تقريبا، ومن ثم لم يوفر هذا الظرف فكرة دقيقة عن العرض الجغرافى والحقيقى «للدهناء».

وتطوف القبيلتان المشار اليهما ـ اى المناصير وآل مرة ـ الاطراف الشمالية والشرقية من المنطقة بينما تحل قبيلة قحطان والقبائل اليمنية الأخرى فى اطرافها الغربية. ومعظم سكان الاطراف الجنوبية منها من السود، من اصل زنجى او افريقى على اقل تقدير.

ولكن هذه القبائل قليلة العدد نسبيا وفى حالة شديدة الفقر نتيجة لطبيعة البلاد التى يعيشون فيها.

وتشارك قبيلة المناصير ببعض خيرات عمان بحكم قربها منها. اما بدو آل مرة فهم متوحشون، اما لغتهم، فمع انها لا تختلف كثيرا عن اللغة العربية العادية فى شبه الجزيرة حتى تستأهل ان نصفها بأنها لهجة متميزة، فلها بعض الخواص المتعددة التى تحير سكان عمان ونجد عندما يتصلون بهم وهؤلاء البدو اصغر فى احجامهم واغمق فى الوانهم من بدو الشمال بل ان بعضهم ـ كما سبق ان قلت ـ سود تماما، ولكن هذا يرجع الى اختلاف الجنس.

ويكفينا هذا القدر من الكلام عن الصحراء. ولنعد الى ذلك الجزء من الجزيرة العربية وهو المناطق الوسطى، والمعلومات المعروفة عنها اقل دقة من تلك المعروفة عن غيرها. وسأبدأ بوصف ملامحها العامة وصفا موجزا وامضى بعد ذلك الى التفصيلات التى يتطلبها الموضوع والتى يتسع لها المجال.

ان تلك الهضبة الكبيرة التى يطلق عليها معظم الكتاب من العرب او الاوروبيين اسم نجد لا تبدأ، كما اكد البعض، من الجوف الذى هو عبارة عن تجويف، بينما تعنى الكلمة العربية

«نجـد» على العكس من ذلك، «الاراضى المرتفعة» والجوف عبارة عن واد طويل فى وسـط الصحراء الصخـرية يقـع عنـد الطرف الجنوبى لوادى سرحان وعلى بعد متساو من جنوب شرقي دمشق وجنوب غربى بغداد. ويقع بينه وبين جبل شمر «النفـود» التى سـبق ان وصـفتـهـا. ومتوسط عمقها عما يحيط بها يتراوح ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ قدم. وهو يحتوى عـلى قرية كبيـرة هى سكاكـة وقريـة الجون ودورا وسبع قرى غيرها بالاضافـة الى مدينة الجوف نفسها التى هى عبارة عن ثمـانى مدن صغيـرة مجتمعـة. ويقـدر مجموع عدد السكان ب٢٨ الف نسمة. وتكثر الينابيع فى هذا الوادى الخصيب الذى تكثر فيه الحدائق وبساتين النخيل.

وقـد مكثنا فى هـذا المكان مـا يقرب من عشرين يوما ثم قطعنا النفود الى جبـل شمر. وهنا تبدأ الحدود الشمالية الاولى لنجد نفسها ويدل عليها ارتفاع جبل شمر تلك السلسلة ذات الصخور الجرانيتية الكبيرة التى تقطع اكثر من نصف شبه الجـزيرة فى اتجـاه شمـالى شـرقى من الشرق، مبتدئة من جوار الحجاز العليا، ومنتهية فى الصحراء بالقرب من الكوفة التى تعرف الآن باسم مشهـد علي. ان هـذه الجبـال، او الصخـور عـلى وجـه التحديد - لانها ليست اكثر من ذلك - ترتفع ارتفاعا مفاجئا وغريبا عن السهل، وتشكـل السور الاول لنجـد. ولا يزيـد ارتفـاعها عـلى ١٢٠٠ قـدم عن سـطح السهل. لقد وصف (ولن) كثيرا من هذه الخـواص الطبوغـرافية بـل وكثيرا من المدن والقرى المتناثرة فى هذه المنطقـة، ولكن هناك اشياء كثيـرة يمكن التحدث عنها حينما يتسـع المجال لذلك ويـطلق اسم شمر، من الناحية السياسيـة، على تلك المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية التى تتـألف من الجوف وتيمـاء وخيبر وجبـل شمـر وسلمى والقصيم الاعـلى. ويحكم هـذه المنـطقـة، التى تمتـد من الصحراء المجاورة لمشهد على فى الشرق الى طريق الحجاج الكبير فى الغرب، طلال بن رشيد الذى يقيم فى عاصمته حايل. وعدد سكان هذه المدينة الحديثة الشهرة يزيد على ٢٠ الف نسمة، وقد بنى سوقها ومسـجـدهـا والقصر خـلال الخـمس والعشـرين سنة المـاضية. وهى مـدينة نـاشئة نـاجحة تتجـر مع مشهـد عـلي والمـدينة. وهى السـوق الرئيسى للخيـل والجمال للمناطق الشمالية فى الجـزيرة العربية. ويقدر عدد القرى الموجودة فى جبل شمر باربعين قرية، واكبـرها قـانه ولقيطة وموجـة وقفار وعـدوة. ومجموع السكان الخاضعين لحكم طلال بن رشيد يزيد على نصف مليون نسمة وثلثهم من البـدو. سكـان جبـل شمـر من أحسن النـاس، ولغتهم افصح لغـات الجزيـرة العربية.

وقد بقيت فى حايل وما جاورها شهرا ونصف الشهـر، ثم استـأنفت رحلتى صـوب الجنوب. وقـد وصلنا الى جبـل

سلمى بعد ان كنت قد اجتزت آخر سلسلة من سلاسل جبل شمر وقطعت واديا يقرب عرضه من ٢٠ ميلا ، وجبل سلمى عبارة عن سلسلة جرانيتية طويلة موازية لجبل شمر ولكنها اقل منه ارتفاعا وامتدادا، وقد دفن بين قممها النافرة حاتم طيء وهو من سكان هذه المنطقة ويضرب به المثل في الكرم العربي وحسن الضيافة. وتلي جبل شمر هضبة عرضها ٨٠ ميلا، واكبر طول لها هو من ناحية الغرب الى الشمال الشرقي. وهذا هو الجزء العلوي من القصيم. وهو سهل خصيب بوجه عام، ففي وديانه الكثيرة الممتدة من الغرب الى الشرق والتي تسقى وتزرع بالقرب من القرى الكثيرة المتجاورة التي ترصع صدر المنطقة، تنتج الارض من الرزق ما يكفي لعدد كبير من السكان.

وتكثر في تلك الحدائق التي تسقيها مياه الآبار الدائمة الموالح والقثاء والذرة والبقول والمشمش والدراق وغيرها من الفواكه، وتتكاثر اشجار النخيل، واشجار الأثل التي يستفاد من خشبها (والاثل) نوع من انواع شجر الطرفاء الذي يشبه شجر اللاريس، وهو شائع كثيرا في الجزيرة العربية وفي بلاد النوبة ايضا، اما اوراقه، فكأوراق فصيلته، تظل خضراء طول السنة، اما ثمارة فصغيرة مخروطية الشكل تشبه ثمار السرو، وخشبه خفيف ومتين تنبعث منه رائحة (التربنتين) وأصناف اخرى من النباتات مما يثبت خصب البلاد. ويتراوح عدد القرى بين ٢٠ و٣٠ وبعضها كقرية رقفا، يسكنها ما يقرب من ٢٥٠٠ نسمة.

وقد استولى امير جبل شمر طلال بن رشيد على هذه المنطقة من الوهابيين.

وتوجد بين هذه الوديان قطع من الأرض مرتفعة تغطيها الاعشاب العطرة والمراعي المختلفة. وتسمع وشوشة نسيم الصباح العليل، بفضل ارتفاع المنطقة، بين الأعشاب الطويلة والأشجار الملتفة، واذا كان المسافر على علم بالشعر العربي فانه يستطيع ان يفهم ويتذوق الثناء العاطر الذي كاله الشعراء، الذين نشأوا في الحجاز القاحل او في تهامة ذات الحر اللافح، لنجد بهوائها العليل ومراعيها الوافرة.

وقد عبرت هذه المنطقة في شهر سبتمبر. ولا يمكن ان تتصور ان هناك رحلة اجمل من تلك الرحلة. وقد اخضعت حكومة طلال بن رشيد البدو والعناصر التي تغير وتغزو، ولذا يسير المسافر في طريقة مطمئنا، وقلما يشعر بمثل هذا الاطمئنان في الشرق، فلا يخشى ان يسلب او يقتل في الليل او النهار. واتمنى لو يستطيع المرء ان يقول مثل هذا القول عن البلدان الواقعة تحت الحكم العثماني.

ونقطع هذا السهل في اتجاه جنوبي شرقي من الشرق مسافة تقارب ٨٠ ميلا. واقول «تقارب» ٨٠، لأنه لم يكن لدي وسائل اقيس بها المسافة المقطوعة وانما كنت آخذ متوسط المسافة المقطوعة

بحساب سير الجمل في الساعة الذى يتراوح ما بين ٤ و٥ اميال او اكثر من ذلك او اقل. هذه الملاحظة تنطبق على جميع المسافات المذكورة في هذا البحث.

ويتغير مستوى السطح كله على بعد ٨٠ ميلا او اكثر قليلا جنوبى جبل سلمى فيهبط هبوطا مفاجئا قدره ٣٠٠ قدم، بينما يشرف على هذا المنظر سهل فسيح هو سهل القصيم الرئيسى. وتتناثر الابراج والقرى والحدائق وبساتين النخيل كثيفة فوق سطح مستو يمتد حتى نهاية الافق، وهو منظر جميل وممتع جدا. وتبدأ هنا المقاطعة الجديدة، او القصيم الاسفل، الى الشرق من طريق الحجاج العريض في الحجاز وراء الذراع الصحراوى الذى مر ذكره مباشرة، ومن ثم تمتد في اتجاه شرقى عبر المنطقة الوسطى حتى تصل اخيرا الى ارض جبل طويق المرتفعة، وتعين منطقة السدير آخر حدودها. ويوجد في الاتجاه الجنوبى فرع صحراوى ـ « النفود » الذى فنيت فيه جماعة الفرس البائسة التى حلت في ضيافة مهنا ـ وتتفرع سلسلة منخفضة من الجبال من جبل طويق نفسه متجهة الى الغرب وتمر شمالى طريق الحجاج بين اواسط نجد ومكة، وتحدد الوادى.

ويمكن ان اشير هنا الى انه يوجد في بعض اواسط الجزيرة العربية اربعة ممرات متميزة او طرق مطروقة تتجه صوب الساحل الغربى، جميعها تقطع الدائرة الصحراوية عند ارق اطرافها.

واول هذه الطرق ذلك الذى يبدأ من حايل وجبل شمر الى المدينة ثم الى مكة، ويتصل بالحجاز عند خيبر. اما الطريق الثانية فتبدأ من عنيزة والقصيم وتنتهى بالمدينة، وتتصل بالمنطقة الغربية بالحناقية. اما الطريق الثالثة فتبدأ من الرياض والدرعية وشقرة، في وسط نجد، وتنتهي بمكة، وتدخل في منطقة مكة عند محطة المغاسيل ـ وهذه هى طريق الحجاج . اما الطريق الرابعة فهى ابعدها صوب الجنوب وتبدأ من اليمامة والافلاج وتسير في وادى الدواسر الى وادى نجران واليمن، وتتفرع منها عند قلعة بيشة طريق شمالية غربية تتجه الى مكة.

اما الطريق التى في اقصى الشمال، وهى التى سلكتها كما سلكها من قبلي ولن، من معان حتى الجوف، فقلما تسلك حتى انها لا تستأهل ان تسمى بطريق او مسلكا للقوافل. والى جانب ذلك يوجد خط من المواصلات يربط ما بين دمشق والجوف، ولكن قلما يستعملها المسافرون.

اما في الشرق فنجد خطوط مواصلات تربط ما بين الوسط والاطراف. والخط الاول وهو اكثرها دورانا هو الذى يصل ما بين الجوف ومشهد علي، وكما قلت سابقا فان الجوف يكاد الا يتبع وسط الجزيرة العربية. اما الطريق الثانية فتمتد من حايل وجبل شمر الى الزبير والبصرة او تسلك في فرع شمالي يؤدى

الى مشهد علي. وهـذه الطريق مطروقـة دائما. اما الطريق الثالثة فتربط ما بين القصيم والزبير مارة بـزلفة حيث تلتقي بها طريق جنوبية تخترق اواسط نجد الى الرياض. اما الطريق الرابعة او الاخيرة (والتى سأتكلم عنها بتوسع فى معـرض الحديث عن هذه المـرحلة) فهى تمر من شـرق الرياض وقلب نجـد الى مـدينـة الهفوف فى الاحساء ومن ثم الى القطيف. وتترك نجد عند ينابيع الاويسط.

وهناك ثلاثة طرق دائرية من بين هذه الطرق الاربعـة وهى حينمـا تتجـه الى الشمال تتجنب «النفود» الرملية ولكنها طرق طويلة وموحشة. اما الطريق الرابع فيعبر «الدهناء» ، وهـو الطريق الوحيد الذى يصل ما بين نجد ومناطق عمان بعد ان يدور دورة كبيرة فى قطر، ولو لم يكن هـذا الطريق لكانت عمـان مفصولة عن اواسط الجزيرة العربية «بالدهناء». ولقد حـان الوقت لنـرجـع الى الحـديث عن القصيم.

والقصيم من اكثـر المنـاطق خصبـا وازدحاما بالسكان فى اواسـط الجزيـرة العـربية وقـد روى عنها ذلك فى تـاريخ الجـاهلية. ومن هنـا انـدفعت اليهـا فى الزمان الاول جموع المحاربين النجديين التى لا حصر لها من قبائـل بكر وتغلب وشيبان وذهل وغيرها من القبائل القريبة منها، هؤلاء الذين رفعـوا عن كواهلهم، تحت قيادة كليب وائل، نـير ملوك اليمن قبل الاسلام بمائة وعشرين سنة وحرروا اواسـط الجزيـرة العـربيـة حتى جـاء المحاربون الحجازيون من انصار النبي محمد واخضعوهم.

والحقيقة ان ظهور مـدن رئيسية فى هذه المنطقة مثل بـريدة وعيـون والرس وعنيزة وسريـة وغيرهـا وما حـولها من التحصينات المنيعة والحصون الواسعة والحدائق الفسيحة والمزروعات وابراج المراقبة المطلة على السهل والاثار الباقية والتى تنم عن اعمال نحت حجرية قديمة، وتشبه كثيرا فى شكلها بل حتى فى حجمها الكرنك، وقـد رأيت بعضها بـالقرب من الرس ـ كل هذا يدعم التاريـخ المكتوب والحديث المتواتـر من ان هذه المنـطقة كانت مزدحمة بالسكان وعلى جانب كبير من الخصوبة، واهلها نشيطون والسلطة المركزية تتركـز فى هذه المنـطقة وكـانت الحال هكذا حتى جاء الاسلام.

وفى القصيم ما يقرب من ٦٠ مـدينة وقرية الى جانب الدساكـر او مجموعـة الاكواخ التى تحيط بالحدائق وبسـاتين النخيل المتناثرة هنا وهناك فوق السهل.

والفضـل فى هذه المصـادر الطبيعية يرجع الى وفرة الماء، مع ان الماء فى هذه المنطقة، كما فى غيرها من المناطق، يوجد تحت الارض. ويمكنك ان تحفر بئـرا فى اى بقعـة من وادى القصيم عـلى عمق يتراوح ما بين ٣ و٤ أقدام او ١٠ أقدام على اكثر تقـدير، فـالتربـة ناعمـة (لان الصـخـور قـليـلة فى هـذه الاراضى المنخفضة)، والمياه المتدفقة غـزيرة، ولا

تنقص الا قليلا اثناء وقت الجفاف الطويل فى فصل الصيف. وتفيض مياه الابار فى الشتاء على جوانبها وكثيرا ما تكون بركا كبيرة بل بحيرات صغيرة، وقد رأيت اثار الكثير منها فى هذا الجزء من رحلتى.

ونجد هنا ارتفاعا ملحوظا فى درجة حرارة الجو الرئيسية، كما نجد ان الفروق المناخية بين مناطق القصيم الجنوبية المنخفضة وبين المناطق المرتفعة من شمر وسلمى اكثر مما يتوقع المرء. وتساعد هذه بالاشتراك مع الرطوبة الزائدة على نمو انواع مختلفة من الخضراوات وعلى وفرتها. واسعار التمر رخيصة وانواعه جيدة ولا يفوقها فى النوع الا تمر الاحساء. وتكثر اشجار الفواكه التى ذكرناها فى هذه المنطقة، هذا الى جانب القمح والدخن والذرة والعدس وغيرها من النباتات التى تزرع على نطاق واسع وينبت، الى جانب هذه المحاصيل التى تستعمل للأكل، نوع ممتاز من القطن يشبه كثيرا القطن الذى ينمو فى الجزيرة Gujerat الهندية، وكثرته تؤكد ان هذه المنطقة تتمتع بطقس أكثر دفئا من شمال الجزيرة العربية.

اما السكان فطوال القامة وسيمو الطلعة يرسلون جدائلهم على وجوه صباح وتضفى عليهم مظهر الغواية نوعا ما. اما لون بشرتهم فهو زيتى فاتح، وقد تطالعك العيون السود، وان كان ذلك نادرا، اما شعرهم فهو اسود فاحم. ولما كان لباسهم يشبه لباس سكان المناطق الأخرى من نجد، فاننى سأواصل وصفة قليلا.

اما الحديث عن ظروفهم الدينية والسياسية فلا اجد الآن له مجالا فى حديثى القصير، وسأترك الموضوع ـ وهو موضوع شائق ـ الى فرصة اخرى اصف فيها رحلتى وصفا اكثر تفصيلا من هذا.

ولما كانت القصيم منخفضة نسبيا فغالبا ما يكون سكانها فاصلا بينها وبين نجد العليا التى سأصفها حالا.

بعد ان امضيت ما يقرب من الشهر فى البريدة والقصيم اتجهت صوب المشرق وقطعت النفود الذى يفصل ما بين هذه المنطقة والسدير، ومررت بقرية زلفة التجارية الكبيرة، ووجدت نفسى وجها لوجه امام مرتفعات الجزيرة العربية الشاهقة، وهى مرتفعات جبل طويق.

ان كل من يلقى بنظره على خريطة جزيرة العرب يلاحظ اسم جبل طويق (ويسمى احيانا تسمية خاطئة بجبل عارض) وقد وضع احيانا هنا واحيانا هناك عند سلسلة من الجبال متميزة فى انفصالها عن غيرها، وليست بعيدة عن وسط شبه الجزيرة. وجبل طويق عبارة عن هضبة كلسية، وما يسمى بسلسلة الجبال، ليس فى معظمه سوى شواهد على حدود هذه الهضبة، وهى اعلى من السهول المجاورة، ولها مظهر جبلى، وان كان لا يعقبها وديان او جبال عند الجانب الآخر، فهى تحد سهوبا مستوية لا يبعد

طرفها عن الساحل الشرقى كثيرا او تتلاشى تدريجا فى الصحراء الجنوبية.

ويشبه الشكل العام للهضبة الهلال العريض ويشكل طرفها الشمالى الشرقى مقاطعة السدير، اما وسطها فيشكل عارضا واليمامة بينما تكمل الافلاج والوشم والفرع الطويل والمرتفع الذى يتجه نحو الجنوب الشرقى الطرف الثانى. اما مقاطعتا الحريق ووادى الدواسر فهى توابع لها بعيدة تقع عند طرفها المحدب، اما القصيم فتقع فى تجويفها المقعر وتسمى المساحة التى يحتلها الهلال نفسه او جبل طويق باسم نجد العليا، وتسمى توابعها مع القصيم باسم نجد، ولكنها تسمية سياسية واثنوغرافية اكثر منها مساحية. ومع ذلك فان اطلاق الاسم بشكل اوسع يشمل جبل شمر بل حتى انه ليشمل، فى رأى الاجانب فقط، الجوف.

ان ارتفاع جبل طويق عما يجاوره من السهول يتراوح ما بين ١٥٠٠ و١٨٠٠ قدم وقد يصل فى بعض الاحيان الى ٢٠٠٠ قدم. واعلى قمة فيه هو جبل عطالة او «الجبل الاجرد» الذى يقع عند التقاء مقاطعة السدير بعارض بالقرب من وادى حنيفة عند خط عرض ٢٥° شمالا. وسأصف هذه الاماكن وصفا خاصا فيما بعد.

وتقطع هذه الهضبة عدة وديان متعرجة تسير فيها بين الحين والاخر مسافات طويلة واهمها واحقها بالانتباه الخاص هو وادى حنيفة.

ويسير هذا الوادى فى بدايته الغربية مع طريق الحجاج النجدية، ويظلان معا ربع المسافة اى حتى حدود الوشم الجنوبية بل وفى نطاق تلك المقاطعة حتى مدينة شقرة. وهنا يتفرع ويشكل شعبه (حرف Y باللغة الانجليزية) ويسير احد فروعه الى الشمال مارا بين الذراع الصحراوية (النفود التى مر ذكرها مؤخرا) وبين مرتفعات السدير، ويتسع الى الشمال الشرقى أو الشرق شيئا ما، من جبل شمر.

اما الفرع الثانى فيدخل، بعد ان يترك مدينة شقرة، مباشرة الى جبل طويق نفسه مارا بمنتصف منطقة عارض، حيث يأخذ اسمه الطبوغرافى وهو وادى حنيفة حتى الدرعية التى هى الان مجموعة من الاطلال.

وقبل ان يصل الوادى الى الدرعية بمسافة فرسخ يتفرع من الوادى فرع صغير ويتجه الى العاصمة الحقيقة وهى الرياض مباشرة. وهنا ينضم اليه المجرى الرئيسي لوادى حنيفة ثم يتجه الى المشرق حتى يتلقي بعد ١٠ او ١٢ ميلا بوادى صليح ويكونان واديا واحدا. ويتفرع منه فرع كبير عند مالكه وعلى مسافة قصيرة من غرب الدرعية، ويطلق عليه وادى حنيفة ويسير حتى وادى عيانة، ثم يسير الى الشرق من الشمال حتى يلتقى بوادى صليح أى بعد سهوب جبل طويق التى فى مقاطعة السدير.

وأخيـرا يمتد من هـذا الوادى عنـد مدينة الرياض فرع جنوبى غربى نحـو الافلاج وهكذا يكون اخيرا اتصالا رديئا مع وادى الدواسر والمناطق الجنوبية.

وهذه هى فروع وادى حنيفـة وهذه طريقـه وقـد كـان يعـرف بـاسم وادى «مسيلمة» نسبة الى مسيلمة الذى ادعى النبوة.

ان ارتفاع هذه المنطقة العام بما فيها من سهوب عاليـة ووديان تشقهـا شقا، اكثر من بقية شبه الجزيرة فى اى اتجاه (بـاستثنـاء عمـان) ويتضمن التعبـير العربى «طلعة نجـد» هذه الحقيقـة كما يعنى التعبير العكسى «انحدار الحجـاز» «الهبوط الى الحجاز والاحساء».

ويبـدو لى، اذا لم تخنى الذاكـرة ان (ولن) كـان يـرى عكس ذلك، وليـدعم نظريته جاء بالتعبير الشعبي «نازل نجد» وهـذا يعنى ان ارتفـاع نجـد اقل من ارتفاع جبل شمر او من اى من الاماكن الاخرى فى المناطق الشمالية الغربية من الجـزيرة العـربية التى لا حـظهـا ذلك الرحالة.

وسوء الفهم هذا راجع الى عدم معرفة اللغة العربية معرفة حسنة حقا ان كلمة «نـازل» تعنى «هابـط» ولكنهـا عنـدمـا تستعمل فى الحديث عن رحلة فلا ترتبط بارتفاع المكان او انخفاضه، وانما تعنى عمليـة «النـزول» (او يجب ان نقـول «الترجل») عن البعير او الحصان عنـد الوصول الى المكان المنشود. وقد يقـول المرء «نزلت» او «هبطت» عندما يتحدث عن زيارته لمدينة ولو كانت على قمة جبل. وبكلمـة واحـدة يمكن القـول ان معنى الكلمة تحدده الظروف اكثر مما تحدده العـوامـل الطبـوغـرافيـة ولا سيمـا فى الجزيرة العربية. اما الكلمة الصحيحـة «للنزول» بمعناه الاخير، وهي المطلوبـة هنـا، فهى «انحدر» او «حـدر» وهذه لا تستعمل ابدا فى الكلام عن «نجد» وانما يستعملون فى الحديث عنها كلمة «طلع» او «صعـد» وهذا استعمـال طبوغـرافى سليم. وقد تختلط هذه التعابير فى سوريا او مصر حيث تعلم ولن اللغة كما اعتقد، ولكنها لا تختلط ابدا فى الجزيرة العربية نفسها.

وقد سبق ان قلت ان الاراضى المرتفعة او طويق نفسه هى كلسية بوجه عام وان كـانـت تمـتـزج فى بـعض الاحـيـان بالجرانيت، ونجد فيها احيانا الصخـور الرملية الحديدية والكوارتز - وقد وجدت علامات كثيرة تثبت وجود الحديد الخام بكميات كثيرة فى الحدود الشرقية بالقرب من وادى صليح، ومن النحاس الخام اذا لم اكن عـلى خطأ. امـا السطح العلوى للهضبة فهو جاف نوعا ما، اما نباتاتها فليست كثيرة ومتنوعـة وان كانت تكفى قـطعـان الجمـال والغنم الكثيـرة التى ترعاها.

أما الاشجار القليلة التى تصـادفها فهى اشجـار الطلع الوارفة والشـوكية

واشجار المرخ الكثيرة الاغصان واشجار السدر الجميلة ذات الاوراق الخفيفة والازهار الصفراء. وهذه كلها توجد فى الاراضى المرتفعة من الهضبة، اما فى الوديان فالأمر مختلف. ونجد احيانا سهوبا ثانية اكثر جفافا من الاولى ويزيد ارتفاعها عنها ٥٠٠ او ٦٠٠ قدم، اما الهواء فبارد وشديد وكثير الجفاف.

وهذه حال مرتفعات نجد، وهى ليست اكثر مراعى وهى أقل خصوبة فى صلاحيتها من الناحية الصحية. ولكن شبكة من الوديان تتخللها فى كل النواحى، وهذه الوديان مترعة بالحياة والحضارة. وتشبه احيانا فى انحدارها المفاجىء وفى شكل الخنادق الذى تتخذه وديان هضبة الدكن، وهى كثيرا ما تكون عريضة وقد يصل عرضها اكثر من فرسخ من الضفة الى الضفة. وان بياض جوانبها وانحدارها العمودى ليوحى اليك بأن يدا قد قدتها من الهضبة وقد تتخللها بعض المجارى التى نحتتها مياه امطار الشتاء فتراكمت بذلك اكوام من الصخور والحجارة الكلسية فى اسفل الوادى. وان ما يبدو على هذه السهوب من مظهر التيه ليرجع الى هذه الخطوط المعوجة فى هذه الممرات المجوفة، ومن ثم كان اسم جبل طويق يعنى «الجبل ذا التلافيف القليلة» او «المتشابكة».

ويمكن ان نلاحظ ان «طويق» هى تصغير «طوق» كما ان «لحيم» تصغير «لحم» و«رويس» تصغير «رأس».. الخ وتستعمل كثيرا، وللتحبب فى معظم الاحيان، فى نجد، وكثيرا ما تستعمل لتدل على الألفة والمحبة وما الى ذلك اكثر مما تدل على صغر فى الحجم. وتلك هى الحال فى مسألة طويق.

وتربة هذه الوديان خفيفة بوجه عام ممزوجة بالرمل والحصى والجير والجص الجرانيتى والكوارتز. وفى الحقيقة ان هذه القيعان تتحول فى فصل الشتاء الى مصبات للمياه، وكثيرا ما تتهدم بيوت الطين المبنية فى تجاويفها. وقد رأيت من هذا الكثير فى زلفة وروضة والرياض نفسها. وعمر هذه المصبات قصير، فسرعان ما تنحسر المياه فى ثلاثة ايام او اربعة وتجف البرك التى تخلفت وراءها، وتبقى الرطوبة طوال السنة مختفية على عمق بضعة اقدام. وتوجد المياه فى مثل هذه الظروف بكثرة فى كل وديان نجد تقريبا، ومن ثم كثرت المراكز المزدحمة بالسكان والزراعة فى هذه المناطق. ولكن الحدائق والقرى والحقول والبساتين توجد جميعها فى بطون الوديان، ولذا تظل مختفية عن عينى المسافر حتى يقترب منها. ويوجد فى السدير، وهى منطقة واسعة ومرتفعة، ما يقرب من ثلاثين قرية ومدينة وبعضها قديم جدا كالجلاجل وحرم الله. اما الوشم فهى اكثر ازدحاما بالسكان، ومركزها المدينة التجارية شقرة. اما العارض فهى منطقة صغيرة ومهمة وهى قلب نجد. وليس فيها سوى ١٥ مدينة وقرية، ولكن منها مدينة

الريـاض وهى العـاصمـة والدرعيـة والمنفوخة وغيرها من المدن الهامة. وفى الافلاج عدد من المدن والقرى مساو لما فى العارض وان كان اقل منه فى عدد السكان وفى القيمـة السياسيـة. واكثر المنـاطق خصوبة وازدحاما بالسكان هى منطقة اليمامة والتى كثيـرا ما تسمى بمنطقة «الخـراج» أى «الدخل» لما تدفعه من كميات طائلة من المال كل سنة للحكومة المركزية. اما وديانها فمشهورة باتساعها وتعـددها وغـزارة ميـاهـهـا، ومن ثم لم تشتهر مدنهـا الرئيسية مثـل السليمية وحلوة وغيرهما بكثرة السكان فقط وانما اشتهرت ايضا بما يجاورها من بساتين **النخيل الواسعة** والتى تبـدو للناظر من **بعيد كأنها بسط** خضراء مفروشـة هنا **وهناك فوق ارض بيضاء** او صفراء.

وتتألف المدن النجدية بوجه عام ـ اذ **ليس** عندى مجال لان اصفها كل واحدة على حدة ـ من مجموعة من البيوت ذات الطابق أو الطابقين ومبنية من آجر كبير غير محروق ولكنـه ينافس الحجـارة فى صـلابتـه وبقـائـه. وجميعهـا محـاطة بتحصينات طينية من اسـوار تعلو ٢٠ قدما، وتعلو فوق هذه الاسـوار الابراج ولكل سور ثلاثة ابواب خارجية او اربعة، محـاطة بالابـراج وتغلق عادة بـابـواب خشبية كبيرة كمـا فى مدينـة «مجمعة» عاصمة السدير ومدينة الرياض عاصمة العارض وغيرهما اذ نجد خندقا يحيـط بالمدينة كلها او بجزء منها. وكثيرا ما نجد فى جميع الاماكن الهامة حصنا مركزيا او قلعة داخل السور ترتفع اسوارها من ٤٠ الى ٦٠ قدما او اكثر من ذلك وهى سميكة جدا وكثيرا ما تكون مدعومة بسند. اما الباب فيكون عادة صغيرا وضيقا ويقع على طرف القلعة وبـين ابراج الدفـاع، والنوافذ ضيقة، وكثيرا ما يحفر خنـدق حـولها. ويقيم فيهـا الرئيس او الحاكم المحلى، اما المقاعد الطينية التى توجد فى الفضاء امام السـور فتدل عـلى الطابع البدائى لمسامرى سموه او ضيوفه.

امـا الشوارع فهى، كمـا فى الشرق عمـومـا، قليلة التـرتيب والنـظام، فهى عريضة احيانا واحيانا ضيقة وهى ابدا غير منتظمة. ويوجد فى كل مدينة بل كل قرية سوق يتوسطها بالقرب من الحصن والى جانبه، كما فى نجد على الاقل، مسجد كبير غير عال. اما الحوانيت، او بالاحرى مخـازن البضاعـة، فهى كثيرة فى هـذه المدن، وهى تشكل الجزء الاكبر من مكان السوق وتحتل المنطقة المجاورة له، ونجد هنا عددا قليـلا من الصناع ولا سيمـا المعـدنـون او من يشتغلون بصنـاعـة الجلود يـزاولون اعمـالهم. وهم اكثـر نجاحا من اصحاب الحوانيت القصابين والبزازين والبقالين.

وتوجد الحدائق خارج اسوار المدينة، ونادرا ما تكون داخل الاسوار، والحدائق هى الرفيق الدائم لاى مـدينة نجـدية، ويعتمد عليها السكان اعتمادا اساسيا فى معيشتهم. وتكثر فيها اشجـار النخيل،

كما انها لا تخلو من اشجار الفواكه الاخرى. وتوجد وراء الحدائق حقول القمح والبقول وترويها مياه الآبار المجاورة، اذ انه بدون رى صناعى دائم لا يمكن ان يكون هناك اى محاصيل زراعية فى وسط الجزيرة العربية. كما ان اشجار النخيل تسقى كل يوم تقريبا، اما اشجار الفاكهة الاخرى فتسقى اقل من ذلك ولا تسقى اشجار الاثل ابدا.

وتكثر الآبار وهى على عمق معتدل، بل اننى لم ار فى نجد اى بئر يزيد عمقها عن ١٢ او ١٥ قدما، بل ان العمق اللازم لاخراج المياه يقل عن هذا فى حدود العارض الجنوبية وفى اليمامة. وهكذا نجد الفرق واضحا بين هذه المنطقة ومنطقة جبل شمر حيث يوجد الماء على عمق ٦٠ قدما أو اكثر من ذلك. اما الرطوبة الكثيرة فى هذه المنطقة فهى راجعة الى قرب هذه المنطقة النسبى من الخليج وامطارها الغزيرة، والى ارتفاع هضبة طويق المجاورة وسهوبها، وهى اكثر ارتفاعا من قمم صخور شمر الخشنة

وينضح الماء من الآبار بالدلاء (الجلدية بالطبع) المربوطة بالحبال وتمر فوق بكرات منصوبة فوق البئر وتسحب هذه الحبال جمال او حمير وفى النادر ثيران. والحقيقة ان الثيران غير معروفة او تكاد تكون غير معروفة فى مناطق جبل شمر والقصيم والسدير والوشم. ولكنها تظهر فى العارض واليمامة، وتزداد نسبتها كلما اقتربنا من الاحساء وعمان. وهذه الابقار حمراء اللون بوجه عام وصغيرة الحجم ويوجد سنام خاص فوق ظهرها واكتافها، كاخواتها الشرقية الثيران البراهمية.

ولن اقول شيئا عن الجمال، ويمكننا ان نتخيل كثرتها فى هذه البلاد التى هى بلاد الجمال. ووظيفة الجمال فى نجد بما تقوم به من اعمال وما توفره من ترف كوظيفة الخيل والابقار معا فى انجلترا او على الاقل قبل ان يقل استعمال هذه فى انجلترا لاتساع شبكة السكك الحديدية.

وكذلك ذكر خيول نجد لا يمت الا بصلة ضعيفة للموضوع الذى اتحدث عنه، ولذا سأؤجل التحدث عن تاريخها، الا اننى لن اترك هذه المخلوقات الجميلة دون ان اقول بضع كلمات. وهى من افضل خيول الجزيرة العربية بل وخيول العالم واكثرها اصالة. واطرافها خفيفة واحجامها صغيرة ومتوسط ارتفاعها يبلغ حوالى ١٤ قبضة وقلما يزيد عن ذلك، وهى عبلة الظهر والبطن تكون اذنابها اقواسا جميلة، اما السلسلة الفقرية فيها فهى منخفضة قليلا وكأنما هى سرج فوق ظهر حصان، مع ان هذه راجعة ايضا الى امتلاء رجلى الحصان اما منخره فهو مستدق، واذناه صغيرتان ومشرئبتان وعيناه نجلاوان وممتلئتان بالحياة، اما منكباه فمنحدران انحدارا جميلا على العكس من الخيول الفارسية او خيول الرأس، وكل ارجله

عظام وعضلات وهى نحيفة وكأنها قضبان من الحديد، اما الحوافر فصغيرة وجميلة، باختصار فانها تمثل اكثر الامثلة كمالا، انها «المثل الاعلى الجميل» لكمال الخيول.

وهى لا تستخدم لاداء الاعمال الشاقة مهما كانت بل تستخدم فى السفر مهما كان طول المسافة. وهى للحرب والاستعراض. ولا تباع ابدا، وانما تنتقل من رجل الى آخر بالميراث او الاهداء او السلب ولذا ليس لها ثمن. ومن ثم فانها قلما تترك وطنها نجد. وكانت هذه الخيول تهدى بين الحين والآخر الى السلطان وشاه ايران وحكومة مصر وكثيرا ما تهدى الى الحكومات العربية المجاورة والاجنبية. وان مثل هذه الخيول التى تهدى ليست هى افضل الخيول وهى ذكور، اما اناث الخيل فلا تهدى. وعلى كل حال فان عرب شمر والقبائل المجاورة سواء كانوا من البدو او لم يكونوا يحاولون كثيرا ان تحمل اناث خيولهم من هذه الخيول ويبيعون الفلو على انه حصان نجدى فى مشهد على وبغداد او سوريا. ومن ثم كان هناك الكثير مما يسمى بالخيول النجدية مما نجده بين الحين والاخر حتى فى مرابط الخيول الاوروبية، وهى حيوانات حسنة، ولكنها ليست خالصة النسب.

وليس على ان اعطى الان ـ مع اننى اود ذلك كثيرا ـ وصفا مفصلا لتاريخ الوهابية. ويكفى ان اقول ان فيصل بن تركى بن عبدالله بن سعود هو الحاكم السابع من هؤلاء الحكام وان نفوذه الان مبسوط على جميع القصيم الادنى ومقاطعات السليل ووادى الدواسر والافلاج والوشم وعارض والسدير واليمامة والحريق والاحساء والقطيف، ومع ان جزر البحرين ليست خاضعة بالمعنى الدقيق الا انها تدفع ضريبة له. واذا نظرنا الى الخريطة وجدنا ان مملكته تمتد فى حزام مستعرض يمر بوسط الجزيرة العربية من حدود اراضى مكة وقلعة بيشه ووادى نجران الى شواطىء الخليج. وتحدها من الشمال مملكة طلال بن رشيد المستقلة واراضى الكويت وتحدها من الجنوب الشرقى مملكة عمان ومن الشرق الخليج ومن الجنوب الصحراء اما من الغرب فتحدها جبال عسير واطراف مكة وطريق الحجاج الممتدة حتى المدينة. وهى الان من اكثر ممالك الجزيرة العربية تنظيما واشدها قوة، وان كانت ليست اغناها او اكثرها سكانا (فان عمان تفوقها فى هاتين الناحيتين) ومع انها لم تسترد قوتها بعد تلك الضربة التى انزلها بها ابراهيم باشا والاحتلال المصرى، الا انها تبدو قوية جدا امام جيرانها العرب، بل انها مصدر قلق للعثمانيين فى مكة.

وهناك واد عريض وطويل الى الجنوب الغربى من جبل طويق، يسمى بوادى الدواسر ويبتدىء عند مقاطعة الافلاج وينتهى بالقرب من قلعة بيشة. وسكانه

كثيرون وان كانوا فقراء. وهم اكثر الناس تعصبا بين الوهابين وقراهم صغيرة، وتتركز على مسافات متقاربة فى الوادى الرملى، اما بيوتهم فمعظمها اكواخ مبنية من سعف النخل، وهى بذلك تدل على حرارة الطقس المتزايدة ويضاف اليها وجوه الناس التى لوحتها الشمس ويتسع هذا الوادى عند نهايته الجنوبية الغربية عندما يلتقى بوادى نجران، وهكذا يشكل الطريق الوحيد التى تربط نجد بداخل اليمن وتمر وراء جبال عسير والسلسلة الممتدة على ساحل البحر. وهذه هى المعلومات التى استقيتها من ثقاة حول هذه المناطق. ومع اننى لم ازرها الا اننى اقتربت من نهايتها العلوية عند الافلاج فان عملية قتل مدخن التبغ (او كما يسمونه «شارب الاثم») تعتبر عملا يستحق الثناء. ولذا فاننى سأكون فى مأزق حرج، ويمكن ان يجد المرء او على الاقل الغريب مثلى، شيئا من التسامح فى المقاطعات الوهابية الاخرى وشيئا من الرفق بنبتة النيكوتين المضطهدة.

وسكان نجد بوجه عام، وعلى الاخص سكان المناطق المرتفعة او النجد الاعلى، اذكياء وظرفاء وحسنو الطلعة سود العيون والشعر، واطرافهم مشدودة وقاماتهم ممتلئة (ويتراوح متوسط اطوالهم ما بين ٥ اقدام و٨ بوصات و٥ اقدام و١٠ بوصات بل قد يزيد هذا المتوسط)، اما وجوههم فبيضاوية الشكل ومنتظمة اما سلوكهم فيتسم بالرزانة. اما السمنة فقل ان تجد اناسا منهم يتصفون بها، ولعل فيصل كان من اشد رعيته بأسا، ويمكن ان يعتبر هذا على انه متلائم مع مركزه. وان صبرهم على المشاق وشجاعتهم النادرة واستبسالهم فى الحروب وعدم تحدثهم الا بمقدار لهى اشياء مشهورة عنهم بل انها مضرب المثل فى الشرق، وان السلطة التى يتمتعون بها والتى يفرضونها على جيرانهم لترجع فى الدرجة الاولى الى هذه الصفات. وقد لقى كرمهم وحسن ضيافتهم من المدح ما هو اهل له. ولسنا نبالغ حين نقول ان المرء لا يجد مكانا فى العالم، او على الاقل فى اسيا، يقابل فيه بهذا اللطف والتسامح والادب كما يقابل فى نجد العليا.

وتقابل هذه الصفات الحميدة صفات اخرى هى التهور الشديد فى سفك الدم فى الحرب. ولا يتصف الجنس العربى بفساد الاخلاق كما تعنيه الكلمة عادة. وان العيوب الفاضحة التى تصم جيرانهم من الفرس قل ان تجدها بينهم، او اذا وجدت فان العقاب الذى يتعرض له صاحبها صارم وشديد.

اما اللباس فى نجد فمتشابه كثيرا. فالكوفية البيضاء او السوداء ذات الاهداب الحمراء او الصفراء التى توضع فوق الرأس بدلا من العمامة. ثم قميصان ابيضان طويلان من القطن او من الصوف المغزول محليا، وهذان

الثوبان مطرزان هنا وهناك بالوان حمراء وزرقاء، ويوجد على احد القميصين جيب صدرى يوضع به قرآن صغير، واخيرا حزام جلدى طويل ورفيع ويلتف حول الجسم خمس مرات او ست واحيانا اكثر من ذلك ولا يلبس فوق القمصان وانما يلبس تحتها على الجلد مباشرة ويكمل اللباس الداخلى. واذا كان النجدى ميسور الحال فانه يلبس عندما يخرج من بيته قميصا ثالثا انظف من القميصين اللذين يلبسهما فى البيت ويلقى فوق كتفيه عباءة سوداء من الصوف او من وبر الجمال (وعندما تكون من وبر الجمال يكون لونها بنيا ضاربا للحمرة) ومطرزة باللون الاحمر حول العنق والصدر، وينتعل نعلا مفتوحا صنع فى البلاد نفسها، واخيرا يتناول فى يده عصا رفيعة او هراوة غالبا ما تكون من شجر السدر او من خشب النبع الاصفر الذى كانت تصنع منه الاقواس فى سالف الازمان، ثم يخرج الى الشارع بعد ان يكون قد استكمل لباسه وعدته .

وقليل منهم من يلبس العقال فوق الكوفية، وعندما يلبسونه يختلف لونه وشكله فهو احيانا ابيض واحيانا اسود ومهدب بهدب بيضاء او ينتهى بهدب ضاربة للحمرة اما العقل ذات اللون الاخير فهى عادة طويلة جدا وتلتف ثلاث او اربع مرات فوق الرأس وهى ناعمة ويفضلها عليه القوم. اما الفقراء فكثرا ما يستعيضون عن العقال بنهاية حبل. اما الذين يتصفون بصفة دينية او كتابية كالأمام والكاتب والمدعى والمطوع فيجب الا يلبسوه لانه يحمل الطابع الدنيوى. واستعاضت هذه الطبقات عن ذلك بالعصى اليدوية الطويلة.

ومع ان هذه القمصان تفصل وتخاط دائما فى البلاد الا انها غالبا ما تكون اوروبية او امريكية وقد جلبت من بغداد او دمشق او مكة، بل ومن الهند عن طريق مينائى الاحساء وعمان. وغالبا ما تحاك الملابس الصوفية فى عارض واليمامة. بل قد تنسج الملابس التى من القطن الذى ينبت فى بلاد العرب. ولون القطن ابيض فى نجد، ولكن هناك كميات مختلفة ضاربة للحمرة فى عمان حيث تستخدم لنسج الملابس. والقمصان طويلة تمتد من عنق لابسيها الى اعقابهم وليست ضيقة بل هى فضفاضة ومريحة. اما الاردان فهى طويلة كثيرا وواسعة ويجب ان تطوى باستمرار. وهى تطوى عند نقطة فعندما تنشر تبدو وكأنها اجنحة ضخمة.

اما المناخ فلعل خط العرض يتحدث عنه، فهو عادة حار اثناء النهار، والسماء تكاد تكون صافية. اما ريح الصبا فهو عليل ولا سيما فى الهضبة نفسها، والليل فيكاد يكون دائما لطيفا. ويشتد البرد فى الشتاء ولا سيما فى العارض ويحب كل انسان ان تظل ناره متقدة بانتظام فى الصباح والمساء خلال اشهر الشتاء. ويوجد الفحم فى السدير والجزء الجنوبى من طويق، ولكن السكان يجهلون

استعماله. وتسقط الامطار من حين لآخر فى الفترة الواقعة بين نوفمبر وفبراير او حتى شهر مارس، وهى غزيرة فى بعض الاحيان، ولقد رأيت نزول الامطار يسبقه الرعد ولكن البرق ليس ظاهرة كثيرة الوقوع هنا. والطقس فى المدة الواقعة ما بين مارس ونوفمبر منتظم الجفاف والصفاء.

والرياض هى العاصمة الفعلية لنجد وهى مدينة محصنة ويقل عدد سكانها عن ٣٠ الف نسمة وتحيط بها الحدائق الغناء التى وهبتها اسمها. وقد بقينا فيها خمسين يوما ضيوفا على الملك العجوز فيصل بن سعود وابنه عبدالله، وظهرنا بمظهر الاطباء فى المدينة.

ان مجموع المقاطعات التى تتألف منها الدولة السعودية احدى عشرة مقاطعة وهى: السدير والعارض والوشم والافلاج واليمامة (وتؤلف هذه المقاطعات الخمس نجدا العليا) الى جانب القصيم فى الغرب ووادى الدواسر ووادى السليل والحريق فى الجنوب والاحساء والقطيف فى الشرق. مجموع سكانها مليون وسبعمائة الف نسمة، اما القوة العسكرية فتقرب من ٦٠ الف جندى. والحكومة ملكية ويتقاسم مهام الدولة رئيس الوزراء (محبوب) ووزير للشئون الخارجية (عبدالعزيز وهو نجدى) والقاضى عبداللطيف وهو حفيد الوهابى الاول ومجلس مؤلف من ٢٢ مدعيا. والحرف الرئيسية فى نجد هى الزراعة والحرب. وكانت التجارة احدى هذه الحرف ولكنها ضعفت وليست هناك اى صناعات هامة الا تلك الصناعات التى يقوم بها الاسكافيون والحدادون.

وبعد ان نترك عارضا واليمامة نسير فى وادى صليح ونخترق مرتفعات جبل طويق متجهين صوب المشرق، ونملأ قربنا بالماء الذى يكفينا اربعة ايام من آبار اويسط التى تقع على طرف المنطقة، ثم نعبر ذراع «الدهناء» او الصحراء الكبيرة التى تليها مباشرة. ونوغل فى المسير ٨٠ ميلا حتى نصل متاهات وادى فاروق القاحلة والتى لا ماء فيها وتقع عند نهاية المنطقة الشرقية، حيث كاد مرشدونا ان يضلوا الطريق بالرغم من انهم معتادون على هذه البلاد. ونسير ١٥ ميلا اخرى ونصل السلسلة الساحلية الاولى من الاحساء ونمر بممرات غار وغوير الموحشة والمفاجئة ونصل الى الساحل الموازى للبحر الى الجنوب قليلا من مدينة الهفوف عاصمة المنطقة.

وهنا نجد انفسنا فى جو آخر، وفى منطقة جديدة كليا. ولم يقابلنا فى المنطقة الممتدة من حدود الجوف الى حدود نجد وجبل طويق اى نهير جار (باستثناء نهير صغير جدا لا اهمية له فى السدير بين جلاجل ورويضة)، وليس هناك مجرى مائى فوق الارض، وتسقى الآبار والدلاء الارض. ولكن الماء ينبجس من الارض مشكلا جداول كثيرة، او قد تتجمع هذه المياه فى آبار فتملؤها حتى حافتها. وهناك

عين كبيرة تبعد ٦ اميال الى الشمال من مبرز يجرى منها ما لا يقل عن سبعة جداول يكفى كل واحد منها لادارة طاحونة حسنة الحجم، ومن ثم كان اسمها «ام السبعة». وعرض قاعدتها الوسطى ٦٠ قدما. وهناك عيون مشابهة لا سيما فى المناطق المجاورة للهفوف والكلبية، وتغمر هذه العيون مساحات كبيرة من الارض وتحولها تماما الى مستنقعات وبعدها تمتد مياه واب نحو البحر مع انها فى الواقع لا تصله.

وتمتاز ينابيع الاحساء هذه بانها حارة كلها، حتى ان بعضها يؤلم اليد اذا غمست فجأة فى مياهه، اما الباقى فهو على درجة معتدلة من الحرارة، ولكنها جميعا تزيد حرارتها عن الحرارة العادية وحرارة الجو. وقلما تتعرض البلاد لزلازل على شىء من الاهمية، ولكن الزلازل الضعيفة موجودة. وقد ذكر لى احدهم انه قد حصلت زلازل فى زمانه وكانت قوية فتصدعت جدران البيوت فى الاحساء، وقد رأيت اثر ذلك باقيا. واستطيع ان اقول، بالرغم من عدم دقة العرب فى اعطاء التواريخ ان هذا الزلزال قد حدث ابان حدوث الزلزال العظيم الذى سبب فى سنة ١٨٣٦ اضرارا جسيمة فى سوريا وفلسطين. وليس فى هذا مدعاة للاستغراب فان مقاطعة الاحساء تكون الطرف الجنوبى لواد مستمر يصل فى اتجاه شمالى غربى الى جزيرة عمر فوق الموصل بل حتى الى ديار بكر، اما حوضه فيبدأ من الجهة المقابلة للبنان وجبال عجلون فى فلسطين حتى يصل الى حدود ايران، ويؤلف مقاطعة تشهد القرائن السالفة والحاضرة على ان جوفها منطقة بركانية. والليك وادى دجلة والفرات الذى يبدأ من جبال ارمينيا وكردستان وينتهى بالخليج الذى تقع على شطآنه وفى تجويفه مقاطعة الاحساء.

ومن بين الينابيع الحارة فى هذه المنطقة واحد يستحق ان نذكره بوجه خاص. وهو ينبوع ذو مياه كبريتية ويسمى (بعين نجم) ويقع الى الجنوب الشرقى من الهفوف، ويقصده عدد كبير من المرضى لا سيما المصابون بامراض جلدية او بالبرص (وهو مرض منتشر هنا) ويتداوون بها من الشلل. وقد امر الحاكم فيصل ان يلقم هذا الينبوع بالحجارة، وان يحطم الحوض الذى فوقه فى الخمس السنوات الماضية لان سكان الاحساء يؤمنون بقدرة هذه المياه على شفائهم اكثر مما يؤمنون بقدرة الله وحده.

والمزروعات، بطبيعة الحال، كثيرة جدا هنا وتتخذ طابعا شبه مدارى، ويزرع القطن والارز والنيلة فى هذه المقاطعة ولكن بكميات قليلة، ومن السهل التوسع فى زراعة هذه المحاصيل. وشجرة النخيل هى احد مصادر الدخل الرئيسية ولا تفوقها اى شجرة اخرى فى هذه البلاد. وليس لتمر الاحساء مثيل فى الجزيرة العربية لا سيما ذاك المسمى (الخلوص) وتزرع اشجار النخيل فى

الاجزاء الجنوبية، ويشكل التمر مادة اساسية للتصدير.

وتقوم صناعات كثيرة تتعلق بالنسيج والتعدين والذهب والفضة والنحاس الاحمر والاصفر بل وحتى الحديد حين لا يلزم صهره. ان مهارة السكان فى نسج العباءات وغيرها من الحلل وتطريزها هى موضع الاعجاب، وتنم عن ذوق رفيع، والمواد الرئيسية المستعملة لهذا الغرض هى الحرير والصوف والخيوط الذهبية. ويتاجر تجار المنطقة مع البحرين وايران والهند ولا سيما مع مينائى كراتشى وبومبى. وجميع الخيول العربية التى تباع فى المكانين الاخيرين تحضر من الاحساء. اما الواردات الرئيسية فهى الارز والاقمشة والاسلحة والمصنوعات الزجاجية وما الى ذلك.

والارض رملية بوجه عام، والتربة خفيفة وكثيرا ما تكون ممزوجة بالكلس الناعم والميكا. الا انها خصبة كثيرا، ومنظر الارض اكثر خضرة من المناطق الوسطى. وتنبت اشجار النخيل القصيرة والاشجار التى من فصيلة الاكاسيا او اشجار النبق دون ان يزرعها احد وحتى فى الاماكن التى لا تظهر المياه فيها فوق سطح الارض. وسطح الارض مستو فى معظم اجزاء البلاد بالرغم من ان بعض التلال الرملية والجيرية تتناثر هنا وهناك، اما التلال الجيرية فهى منخفضة وكهفية بشكل غريب. وينحدر السهل كله تدريجا نحو البحر، وقبل ان يصل الى مستوى الخليج ينخفض انخفاضا يبلغ ١٠٠ قدم او اكثر. وتكثر المراسى فى الساحل ولكن الماء عادة ضحل كثيرا فلا يسمح برسو السفن الكبيرة فى خلجانه، وانما تستعمل هذه الخلجان كموانىء لقوارب صيد السمك العربية.

وهناك فى الداخل طوق طويل من التلال الصخرية البيضاء يحيط بالمنطقة ويفصلها عن رمال الدهناء القاحلة. وهناك سلسلة مشابهة، وشاذة وان كانت ذات ارتفاع متوسط تقع بالقرب من البحر عند القطيف. وتتضاءل التلال صوب الشمال حتى تختفى اخيرا، بينما تليها ارض صلبة تشكل الطرف العلوى من الاحساء عند الكويت، وبذا تفصل الاجزاء الاكثر خصوبة فى المنطقة عن المناطق المجاورة للزبير والبصرة.

وتختفى التلال فى الجنوب برهة، وهناك تمتزج المقاطعة بالدهناء، هذا اذا استثنينا ممرا ضيقا يصل ما بينها وبين قطر وساحل البحر المباشر.

وهناك طريق واحد يصل ما بين هذه المنطقة وبين نجد ويمر بجبل طويق، وهو الذى سلكته ويرى السكان ان فيه الكفاية.

ان المدن والقرى المأهولة كثيرة، اما الخربة فاكثر منها. وتحتل الهفوف رقعة من الارض تتسع لاربعين الف نسمة، ولكن ليس فيها الآن اكثر من ٢٣ الف نسمة. ومثل هذا يمكن ان يقال عن مدن اخرى بقيت بعض اجزائها مثل الجون

ومبرز والهدية، اما القطيف نفسها فتلقاها اطلالا. وقد قابلت فى كل مكان امارات تشهد على الغنى والازدهار الدارس.

ان قصر زعماء القرامطة القدماء فى القطيف ليستحق من الوصف اكثر مما استطيع ان افعل فى هذا المقام. فهو قصر قد بنى على الطراز المعمارى الفارسى والعربى وزخرف زخرفة عظيمة، وهو قائم بالرغم من مضى اكثر من ثمانية قرون على بنائه وان كان فى حالة محزنة كثيرا. ان قلعة الهفوف الرباعية الكبيرة لمن الصروح المؤثرة كثيرا وهى تتحدث عن مجد غابر، وهى تكون جزءا كبيرا من المدينة وتحيط بها الابراج الضخمة التى يبلغ عددها ١٦ برجا فى كل جانب، وهناك حصن وخندق يحيط بها ولها ابواب محروسة حراسة جيدة.

اما المراعى فهى هنا اقل من نجد، وتحتل الزراعة الجزء الاكبر من الارض ومن ثم كانت الاغنام قليلة واللحم غاليا. ولكن نوعا ممتازا من الحمير يشبه حمير مصر يكثر فى هذه المنطقة، اما الوانها فهى عادة بيضاء او شهباء. ويوجد هذا النوع من الحمير على طول ساحل عمان بكثرة وتشكل موردا دائما حين تصدر الى جزر موريشيوس وغيرها من الاماكن. وقد تجد الثيران كثيرا، وقد رأيت عددا قليلا من الجواميس فى بعض المستنقعات القريبة من الهفوف. وعلى كل حال فان الحيوانات المختارة فى الاحساء هى الهجائن وهى ادنى من مثيلاتها فى عمان. ولونها فاتح وشكلها جميل (بالدرجة التى يكون فيها شكل الحيوان جميلا) وسريعة فى خطاها، وسهلة الانقياد، وشعرها جميل وناعم كشعر القطط، وهى من احسن الفصائل التى يود المرء ان يراها. ولكن شأنها شأن فصيلة الجمال كلها، لا ترتبط ابدا بصاحبها او براكبها، فاذا افلتت فانها لا تسلك السبيل الى مكانها، اما عن سهولة انقيادها فهى ذات طبيعة سلبية، لا تنجم عن اى نوع من العطف او حفظ الجميل، كما هى الحال احيانا عند الحصان او الفيل.

اما السكان فهم اكثر هدوءا واجتهادا واتجاها نحو التجارة من سكان نجد ويكثر فيها الشعراء والعلماء، فى العلوم العربية على الاقل وجميعهم يتغنون (بلذات المعارك الكثيرة) وقد يركنون الى ظل ظليل او يأخذون مكانهم من جلسات المنادمة ويستمتعون بالاغانى وما الى ذلك من لذات تنوع حياتهم او ينصرفون الى اعمالهم، وهم اذكى من النجديين وان كانوا اضعف منهم فى القوى الجسدية والصفات الحربية، ولذا فقد استسلموا بدون اية مقاومة.

ان مناخ الاحساء ادفأ بكثير من مناخ نجد ولا توقد النيران فى البيوت حتى فى شهر يناير اما العباءات فلا تلبس فى فصل الشتاء. وفى الحقيقة ان المرء ليستطيع النوم فى العراء طول السنة تقريبا. ولكن الهواء رطب. اما مستوى

الصحة هنا فهو اقل من مستوى الصحة فى وسط الجزيرة العربية، ولا سيما فى اراضى المستنقعات المنخفضة والتى تحيط بالقطيف حيث تسود الحمى المتقطعة والامراض الاخرى الناجمة عن هذه المستنقعات.

● ● ●

ويبقى علينا ان نتناول بالبحث جزر البحرين ومقاطعات قطر وعمان.

وقد قطعت المسافة الواقعة ما بين ميناء القطيف وميناء مدينة المنامة فى زورق عربى صغير، وتقع مدينة المنامة على الطرف الشمالى لجزيرة البحرين ومقابل مرفأ جزيرة محرق. والذراع البحرى الذى يفصل ما بين القطيف والمنامة ضحل كثيرا، وتستحيل الملاحة فوق مياه غير عميقة، وعندما يرتفع المد نادرا ما تصل المياه الى اغصان النخل المزروع هنا وهناك فى الاراضى السبخة على هيئة أسيجة رباعية لكى تمسك بالسمك الذى يرميه سوء طالعه بين هذه الجدران الورقية.

ان المضيق الذى يفصل المنامة عن المحرق ضيق، وعرضه يقل عن ميلين ويبلغ من ضحالته ان الرجل يستطيع ان يخوضه بسهولة ابان الجزر، فيصل من جزيرة الى اخرى. والمنامة مرفأ بحرى كبير يبلغ سكانها ٢٥ ألف نسمة او اكثر من ذلك وبها ساحات اسواق واسعة كثيرة، وحصن شامخ على طرف البحر، يقطنه نائب الحاكم وهو على بن خليفة (اما الحاكم فهو محمد بن خليفة ويقيم فى مدينة المحرق) وعدة بيوت كبيرة وجميلة تتألف من طابقين او ثلاثة، ولكن معظمها الأن فى طريق الزوال، لقد الحق الغزو اضرارا كثيرة بتجارة البحرين وازدهارها.

وطول الجزيرة ٧٠ ميلا تقريبا وعرضها نصف طولها. والجزيرة بوجه عام منبسطة كثيرا ومنخفضة، وهي لا ترتفع اكثر من ٢٠ قدما عن سطح البحر ولا سيما في الجهات الشمالية والغربية. اما في الشرق فتوجد سلسلة من الجبال او من التلال على الاصح، يبدو ان اعلى قمة فيها لا تزيد عن ٨٠٠ أو ٩٠٠ قدم ويساعد على بروزها الاراضي المنبسطة. والتربة خصبة فى معظم الاماكن وينمو فيها الارز وعشب الحساء وبعض الفواكه ولا سيما الموالح. ويتوفر الماء فى الجزيرة وان كان مالحا فى بعض الاحيان.

ويعتمد السكان في معيشتهم على موردين رئيسيين هما التجارة وصيد الاسماك. اما التجارة فهى (او بالاحرى كانت - لانها تضعف يوما اثر يوم) حركة نشيطة كثيرا وتشمل دائرة كبيرة، فان سيلا دائما من التجارة يربط ما بين البحرين وسواحل عمان وايران والسند والهند الى جانب القطيف وبوشهر والكويت والبصرة. وحتى في هذا الزمن الذي ضعفت فيه الحركة التجارية نجد ان السفن الشراعية الكبيرة - بعضها

بني في الجزيرة نفسها وبعضها بني في لنجة الواقعة على الساحل الايراني والباقي بني في الكويت او الهند - تأتي الى الميناء او تقلع منه باستمرار وتزدحم البضائع المستوردة والمصدرة والبحارة ورجال الجمارك والحمالون والتجار فوق الرصيف - والكل في شغل دائم. وتزدحم فروع السوق المختلفة بالايرانيين والنجديين والعمانيين والمغول والسنديين والهنود والزنوج وتكاد هذه الاروقة ان تضيق بهم. ونجد في هذه المدينة من الحوانيت والصناع من حائكين ومعدنين - ما يربو على ما في مدن نجد العليا جميعها ولو انهم وجدوا تشجيعا اكثر لزاد عددهم عن ذلك كثيرا .

وتزدحم المقاهي التي حرمها الوهابيون في نجد بالتجار وربابنة السفن او من اجتمعوا لقضاء اعمالهم او سماع الاخبار. اما المساجد فقد اهملت نسبيا، وذلك لبعض الاسباب. وتسير مواكب الزواج في الليل والنهار تتقدمها الطبول والمزامير وفرق الانشاد، ويبتهج المواطنون بذلك .

ونجد في نفس الوقت نسبة كبيرة من السكان تعمل في الغوص على اللؤلؤ. وتزدحم هذه المياه الضحلة التي تحيط بالجزيرة بمئات القوارب في المدة الواقعة ما بين شهري ابريل ونوفمبر، وتلاقي نجاحا كبيرا. وتجبي الحكومة الضرائب عن القوارب وعن اللؤلؤ ويرسل قسم من هذه الضرائب الى عمان. وسوق اللآلىء الرئيسي هو بغداد حيث يكاد اليهود يحتكرون هذه التجارة .

وتكثر الاسماك المختلفة على مسافة من الشواطىء ، وتكون الطعام الرئيسى للسكان وتباع اسماك الفندر والسرطان البحري والمقريل والربيان وغيرها بأسعار زهيدة. ولقد وجدت ان متوسط اسعار السمك هنا يبلغ ١/ ٢٠ من اسعاره في بيروت. وفي نفس الوقت نجد ان اسعار لحوم الابقار والاغنام غالية ومن نوع ردىء. ويكاد يكون لحم الجمال غير معروف هنا، على العكس من نجد، وليس ذلك خسارة كبيرة .

أما المناخ فهو لطيف وليس باردا ابدا وقلما يكون حره مضايقا اما طابعه العام فهو الرطوبة الكثيرة. وهو نتيجة لذلك ليس صحيا، وفي الحقيقة ان الاماكن التى استطعت ان ازاول فيها عملي الطبي مثل البحرين قليلة . والطابع الجسمانى للسكان يختلف كثيرا عن سكان وسط الجزيرة العربية، مع انهم يشبهون سكان الاحساء الى حد ما فمعظمهم صغار القامة ونحفاء ولا تبدو عليهم القوة العضلية فهم في ذلك يقتربون من الجنس الهندي نوعا ما.

ويمتازون بملامح واضحة ومتميزة ونظرات تتسم بالذكاء وان كانت قلما تتسم بالحيوية. ويقيم في البحرين كثير من الهنود الذين يشتغلون بالتجارة والذين جمعوا ثروات كبيرة عن طريقها، وهم يحافظون على عادات بلادهم

وتقاليدها ولا يتزاوجون ابدا من سكان البحرين. اما العرب فهم من جنس خالص النسب متميز عن غيره. كما انك تقابل الايرانيين كثيرا في المدن وقد اندمجوا مع غيرهم فاصبحت لا تستطيع ان تميزهم عن غالبية السكان. ومنذ عهد ليس بالبعيد كانت تعيش في البحرين جالية يهودية صغيرة، ولكن محمد بن خليفة طردهم منها .

وكان الملك الوهابي منذ بضع سنين يأخذ ضريبة سنوية قدرها ١٨٠٠ جنيه من هذه الجزيرة. وبموجب هذا يرسل الى الجزيرة من حين لاخر بعض رجاله ويكثر المالطيون (ولاسباب اخرى) على شواطىء البحرين وعلى ساحل الخليج الفارسي كله اكثر من اي مكان اخر في الشرق. ويقيم بعض سكان البحرين في جزيرة قيس الصغيرة والى الاسفل منها في هذا البحر، في مينائي لنجة وبندر عباس ثم في مدن البيضاء والدوحة والوكرة في قطر والشارجة وفقيرة وصحار والزيب ومطرح ومسقط في عمان. وحيثما حلوا يتميزون عن غيرهم بالتفوق في التجارة والمهارة الصناعية .

ان جزيرة المحرق اصغر من جزيرة البحرين بكثير، والمرفأ الرئيسي، وهو الذي يسمى باسم الجزيرة، اقل من المنامة في الاتساع وفي السكان. ويغلب العنصر العربي على العنصر الايراني في المنامة، والتجارة اقل نشاطا من البحرين. والجزيرة كلها منخفضة ومستوية ولكن تربتها الرملية اكثر جفافا من اختها على الشواطىء الضحلة ومناخها اكثر ملاءمة للصحة. وهناك قلعة مربعة منيعة تتحكم في الممر الشرقي للقناة التى تفصل ما بين الجزيرتين، ولكنها الان مهجورة تماما ، وقد تحولت الى مربض لخيول وهجائن الحاكم. وتوجد قلعة اخرى مشابهة لهذه وان كانت اكبر منها بكثير ـ انها حصن في الواقع ـ فوق ارض البحرين الرئيسية الى الشرق من المنامة وقد جردت هذه القلعة من آلات الدفاع تجريدا تاما .

ومجموع القرى الموجودة في الجزيرة يبلغ ثمانين قرية، وبعض هذه القرى من التي زرتها كبيرة الحجم نوعا ما، بالرغم من ان معظم البيوت ليس اكثر من سقائف مبنية من سعف النخيل وهذه هي التي يتطلبها المناخ ، وتتناثر بين اكواخ الفقراء هذه بنايات كبيرة مبنية بالاجر والحجارة ومظهرها يتحدث عن الفخامة .

ونأتى **بعد** ذلك الى البلاد المجاورة وهي قطر. ويحكمها عدة شيوخ محليين واهمهم محمد بن ثاني وهو رجل عجوز ممتاز اشتهر بالحكمة والروية والرقة ويقيم في ميناء البيضاء. وليست له سلطة مباشرة على الشيوخ الاخرين شيوخ الوركة وصبارة وصور وغيرها. ولمحمد بن خليفة حاكم البحرين نفوذ كبير في هذه المنطقة .

اما طابعها العام صوب الداخل فهو

جدب متناه، وقلما تجد فيهـا حدائق او حقولا مزروعة ، والماء نادر والآبار عميقة وقلما تكفي للاستعمال في البيوت، ودع عنـك مسألة الري. وهي ليست سـوى شريط ضيق من المراعي يمتد بين التلال المنخفضة التي تلاصق الساحل وتمتـد الى الداخـل. وتتناثـر قرى كثيـرة فوق الساحل ويزيد عـددها عـلى ٤٠ قريـة، وتعتمد في معيشتها عـلى البحر لا عـلى الارض. ويكاد السكان يعتمدون اعتمادا كليا على الغوص على اللؤلؤ، وهذه المنطقة اشهر منطقـة معروفـة لانتاج اللؤلؤ في العالم. وفصل الغوص على اللؤلؤ يمتـد من اواخر شهر مارس الى منتصف شهر نوفمبر تقريبا، ويسبب استمرار الغوص الكثير والطويل امـراضا كثيـرة تصيب السكان ، وهي امراض جسمية وخلقية .

ونجـد بين الفينـة والاخرى ابـراج مراقبة على طول التلال التي في البلاد هذه التلال التي هي عبارة عن امتداد لسلسلة جبال الاحساء البحـرية وهي تستعمـل بمثابة قلاع وحصون يلجـأ اليها رعـاة قطر حينما يهاجمهم جيرانهم ـ وكثيـرا ما يفعل ذلك ـ بنو ياس والمناصير او بدو آل مرة وقد خرقت ابواب هـذه الابراج على ارتفاع ١٢ قدما من الارض ولا يمكن الوصول اليها الا بالحبال التي تتدلى منها فيسحب بهـا من يـلجـأ اليهـا ابـان الحصار.. وتوجد مراع صغيرة وراء هذه التلال حيث يرعى البدو الذين مر ذكرهم ابلهم، وتـوجد وراء هـذه المـراعي تلك الامواج الشاسعة والتي لا امل فيها من رمال الدهناء التي تمتد حتى اليمن .

أما الهواء فاكثر جفافا من البحـرين والمناخ اكثر برودة بالرغم من ان هـذه البـلاد تقع الى الجنـوب من البحرين ـ ومياه ما يجاورها من البحر ضحلة جدا، ويسميـه النـاس «بحـر البنـات» حـين يسخـرون من مظهـره الهادىء والذي يشبه بركة من البرك. ولعـل حركـة المد والجزر التي تحدث مرة كل ٢٤ ساعة ـ والتي تحـدث مـرة كـل ١٢ سـاعـة في البحرين ـ هي وحدها التي تبقي على هذا البحر فلا يتحول الى ركود مـطلق. وقد عكـره الوحـل وبـه كميـات كبيـرة من الاسماك الى جانب محار اللؤلؤ. ومياهه مليئة بالمريجات التي تضيء كثيرا في الليل والحقيقة ان هذه الحالة تمتد على طول الخليـج وحتى في المناطق العميقـة منه. ويعزو العرب هذه الظاهرة الى نار جهنم التي تقع تحت مياه البحر مباشرة والتي قد تتلألأ في سطوح زجاجية حسب منطق هذه النظريـة. ولكن العرب (النجـديين بـالطبـع) لم يستـطيعـوا ان يعـطوني معلومـات ايجابيـة حول هـذه النقـطة. وتصطف جزر لا حصر لها (لقد سمعت اسماء اربعين جزيرة عدت امامي واحدة بعد الاخرى) عـلى الجون، ولكن المياه العذبة لا توجد الا في القليل منها، مع ان بعضهـا ـ كجزر فارور وحالول وابو موسى ـ كبـير الحجم وجبلـى وقـد اضـطررت لقضاء يومين في الاخيرة فقد هبت عاصفة

منعتني من متابعة السفر ولذا كان عندي الوقت الكافي لاجوبها من «وسطها حتى شاطىء البحر» ومن الواضح انها بركانية وتتوسطها قمة على شيء من الارتفاع وبها ينابيع قليلة ذات مياه مالحة .

وتصل الصحراء ساحل البحر بين قطر واقرب حدود مقاطعة الشارجة الى قرية ابي دبي، ويقرب امتدادها على ساحل البحر من ١٠٠ ميل تقريبا . ويحتل هذه المنطقة القاحلة بدو بني ياس وهم كثيرو الغزو والقتل وقد كانوا قراصنة من قبل وقد كسر من شكوتهم في البحر العلم البريطاني . والقرية الوحيدة التي هي ذات اهمية ـ انها مدينة صغيرة في الواقع ـ هي قرية صور، وهي تعيش كما يعيش غيرها على الغوص على اللؤلؤ .

ويحمل الساحل الممتد من ابي ظبي والمقاطعات الداخلية التي تقع عند رأس الحد وحوله في الجهة الجنوبية الشرقية حتى ظفار اسم عمان، وهذه التسمية سياسية اكثر منها جغرافية وتدل على ان السلطة العليا لسلطان عمان، ثويني بن سعيد، نافذة نفوذا مباشرا . مع ان حاكم الشارجة المحلي خالد بن صقر قد اقام حكمه الاستقلالي فوق الجزء الاكبر من منطقة رأس مسندم وهي تتألف من المقاطعات الثلاث وهي الشارجة ورؤوس الجبال وكلحات .

وتعطينا حكاية القبطان ولسند فكرة معقولة عن كثير من عمان ولكنها ليست فكرة كاملة اذ كان المسافر المقدام يزور المملكة في وقت كانت فيه جيوش الوهابيين تضايق المناطق الشمالية والغربية ثم ان مرضه قد اختصر من ابحاثه تلك الابحاث التي ضيقتها شخصيته الاوروبية الواضحة وبالرغم من ان الغيرة الكثيرة من الاجنبي ولا سيما الاوروبيين تعم نجد، الا انها في عمان موجودة بدرجة أخف، وهناك شعور يعم نفوس المواطنين وهو منع الاجانب من رؤية أفضل بلادهم او اغنى مدنهم، خوفا من ان يستبد بهم الجشع وتأتي الظروف التي يضايقونهم فيها او تنجم نتائج غير مرضية .

ولم استطع ان اختبر بنفسي المناطق الداخلية فحصا دقيقا وشاملا كما اود ان افعل . وكان السبب الرئيسي في عدم قدرتي على القيام بذلك هو تلك الرحلة التي طالت كثيرا وتحملي الكثير من الصعاب، مما ادى الى اعتلال صحتي ووهن قواي، حتى خيل الي ان نهايتي قد قربت وان ايامي معدودة . ولعل حمى التيفوئيد هي التي اتخذت القرار الحاسم، ومهما يكن من امر فقد امضيت في هذه الزاوية من الجزيرة العربية ما يقرب من شهرين قبل ان يلم بي المرض وقد مكنني هذا الوقت من ان ازور بنفسي وان اختلط مع السكان المطمئنين بسهولة وان احصل على معلومات كثيرة وقيمة عن عدة اشياء . سأصف الآن بعض الملامح الهامة التي تتميز بها البلاد وسكانها كما عرفتهم .

ان عمـان ـ بـالمعنى الواسـع ـ هي امتداد للسلسلة الساحليـة التي تطوق الجزيرة العربية، وان ارتفاعها وعرضها في عمان ليزيد عن ارتفاعها وعرضها في اي مكان اخر. والنهاية الرئيسيـة لهذه المنطقة هي سلسلة جبـل الاخضر الذي ترتفع اعلى قمة فيه بين برقة ومسقط على بعد ٦٠ ميلا من الساحل بينمـا تستمر سلسلة من قممه في اتجاه شمالي غربي من شمال رأس مسندم وفي اتجاه جنوبي شرقي حتى راس الحد. ويبلغ متـوسط بعد السلسلة عن البحر ٤٠ ميلا تقريبا ولكنها تقترب اكثر من ذلك بالقـرب من رأس مسندم حتى تمتزج فيه اخيرا بينما تبتعد عن الساحل في باطنة وجيلان .

وتتفـرع من هـذه السلسـلة عـدة سلاسل اخرى تشكل الجهـاز العظمي للمنـطقة كلهـا. فهنـاك عنـد نهـايتهـا الشمـالية سلسلة من الهضـاب تسمى بجبل عقدة، وما ان تتجه صوب الجنوب الغربي وتصل البـريمي حتى تصل الى ارتفـاع مناسب. ثم تتجـه الى الجنوب الشرقي وتسير مـوازية للجبـل الاخضر وعلى بعد كبير منه وتحدد هذه السلسلة المنـطقة الداخليـة او الظهيـرة وهنـاك سلسلة جبلية اخرى تبدأ عند برقة وهي في بدايتها ليست سوى صخور جـرداء ولكنها سرعان ما ترتفع ارتفـاعا كبيـرا وتسير محاذية للساحـل حتى تصل الى صـور، وتتصل في نفس الوقت بـالجبل الاخضر بسلاسل متقاطعة توجد ما بين برقة ومسقط وتكون هذه حدود الباطنة. وتكون هذه الهضـاب بعد صـور عقدة كبيرة تحيط برأس الحد وتلتقي بالظهيرة وراء الجبل الاخضر .

وتتـألف هـذه الجبـال ـ ولاسيمـا السلسلة السـاحليـة والجبـل الاخضر نفسـه ـ من البازلت والجـرانيت بصفة رئيسية مضافـا اليها الميكـا والكوارتـز والصبار. اما في الجنوب والشرق فتبدأ المادة الجيرية والطباشيرية في التغلب وقد وصفت الهضاب المنخفضة التي تسـير محاذية للساحل من رأس الحد الى ظفار بأنها تتكـون من هذه المـواد في الدرجة الاولى، وان كان بعضها اذا صـح ظني يتكون ايضا من البازلت .

وتـقـع الصحـراء التـي سبـق ان وصفناها وراء الظهيرة. ولم استطع ان ارى من فـوق المـرتفعـات التي وراء الشـارجـة اي انقـطاع لامتـداد تلك الصحـراء المحمـرة واذا صحـت تلك المعلومات التي نقلها الي البدو كان هناك على بعد معين من الظهيرة سلسلة طويلة ومنخفضة وبيضاء (جيرية) تتـألف من الصخور ومن التلال الرمليـة يسمونهـا الاحقـاف وتشكل طرف سلسلة عمـان. وقـد ذكـرت هـذه التـلال في «ديـوان الحماسة» لابي تمام. ولعل وادي جبرين المثبت في بعض الخرائط وان كان لم يثبت في اي خريطة انجليزية هو احد وديـان الاحقاف او انه مطابق للاحقاف نفسها .

هذه هي الخطوط العامة لعمان ـ وهى

خطوط كثيرا ما تمتلىء بالاراضي الخصبة والمزروعة فالاجزاء الواقعة منها ما بين البحر والجبل الاخضر - اي مقاطعة باطنة - غنية في محاصيلها الا في الاماكن التي تظهر فيها السلسلة الساحلية الصخرية. وتكاد تكون جميع نباتات الباطنة هندية، فشجر جوز الهند يمتزج بالنخيل ويعلوها اشجار البتل - اما اشجار المانجو فتبسط ظلها الوارف واشجار الباباز التي تزين الحدائق - ثم نباتات المنطقة المدارية المتسلقة التي تمتد من فرع الى اخر - وتجري تحت هذه جميعا شبكة من الجداول تأتي من الجبال او تنبع من الارض فتعطي الارض من الحياة والخضرة شيئا لا يتمتع به اي مكان في الجزيرة العربية. وحقا ان هذا المكان هو حديقة شبه الجزيرة. وتزين القرى الكثيرة وبعض المدن الهامة هذه المقاطعة. وسأتكلم عنها كلاما منفصلا فيما بعد.

ويحتوي الجبل الاخضر ومنطقة امتداده في بلاد بني ابي على وجيلان على وديان خصبة كثيرة مليئة بالخضرة الجمة والمحاصيل الكثيرة. أما القرى فهي بيوت قد تجمعت كل بيت فوق الاخر على سفوح الجبال، وتذكرنى بالمناطق الاكثر سكانا في لبنان والتي تقع فوق بيروت في بلاد سوريا. اما الكروم، والتي امتدحت خمرتها (رغم انني لم احتسها) فتكثر فوق منحدرات الجبال، وتكثر السيول الجارية من شماريخ الجبال، ولكنها لا تصل الى البحر الا وقت الشتاء حين تتحول الى سيول عارمة. وقد وجدت في هذه المنطقة كما وجدت في الباطنة شجرة البيبول الهندية. اما اشجار النخيل فكثيرة وقوية، ولكن انتاجها اقل من انتاج الاحساء. ويزدهر في هذه المنطقة قصب السكر والقهوة والنيلة والقطن الابيض والاحمر. ويكثر القطن الى درجة كبيرة، اما القهوة فهى اقل جودة من قهوة اليمن، وهي تشبه الانواع الهندية. ويكثر النحل في المنطقة الجبلية ويجني منه عسل ممتاز ذو لون ابيض.

اما الجبال فهي احيانا جرداء - وان كانت في الغالب مكسوة بالغابات او على الاقل جزء منها ومن ثم جاء الاسم «الاخضر». أما السكان فهم جنس متميز ولعلهم يشبهون الى حد ما الجنس الحبشي، وهم يقولون انهم من نسل القحطانيين الذين كانوا يقيمون في جنوب الجزيرة العربية قبل الاسلام بعدة قرون ويعتقدون ان اسلافهم قد هاجروا الى هذا المكان من اليمن في زمن مبكر. اما بعضهم فيزعم انه ينتسب الى بعض القبائل اليمنية او النجدية في الزمن المتأخر كقبيلة فزارة في الباطنة. ويحكمهم حكام محليون يدينون جميعا لملك عمان. واقوى السلالات واقدمها هى سلالة اليعاربة التي تنتسب مباشرة الى يعرب بن قحطان وكانوا من قبل حكام عمان حتى جاءت سلالة سعيد التي تسلمت مقاليد السلطة منذ ١٤٠ سنة ولا تزال

متسلمة لها. ومن القبائل القوية والمتزعمة قبيلة الغفارى وقبيلة الجلاندى - ومعظمهما يقيم في الجنوب الشرقي من المنطقة .

اما مسقط فهى المرفأ البحري الذي يتردد عليه الاوروبيون كثيرا، وهو اكثر مكان معروف لدى كثير من الرحالة السابقين وليست مدينة مسقط عاصمة السلطنة الحقيقية بالرغم من اهميتها كما انها ليست المقر الحقيقي والرسمي للسلطنة. وهناك في عمان ثلاث مدن معترف بها على انها تحتل هذه المرتبة وهي صحار ونزوة وبهلا وقد قال كل من زار هذه المدن ان المدينة الاخيرة - وقد اقعدني المرض عند زيارتها - هي اكبر مدن السلطنة واكثرها زينة وزخرفة. وقد وصفها لي احد سكان الاحساء الاذكياء واسمه بن خميس وكان قد اقام بها ردحا من الزمن فقال - ان هناك سورا ثلاثيا على جانب كبير من الارتفاع والمناعة يحيط بها وفي وسطها سوق واسع ومسقوف ويسمونه «بالقيصرية» اما البيوت فهي تتألف - كما وصفها لي - من ثلاثة طوابق، وشوارعها كبيرة ومنتظمة وبناياتها من الحجارة وقد ذكر لي ان الطريق اليها تسير بين مضيق من الجبال المكسوة بالاحراش جميلة جدا وذكر لي اخيرا ان عدد السكان يقرب من ٣٠ ألف نسمة .

أما صحار التي انفقت فيها بضعة ايام فهي باعتراف الجميع اقل من بهلا في كل شيء ومع ذلك ففيها من الزينة والقوة ما في بهلا اما سكانها فيبدو لي ان عددهم يزيد عن ٢٠ الف نسمة مع انهم قد قلوا في السنوات الاخيرة. ومن ثم يمكننا ان نستنتج ان الوصف الذي تقدم عن بهلا ليس مبالغا فيه كثيرا، ولا شك ان كمية المصوغات من الذهب والفضة وهي على جانب رفيع من الصياغة، التي رأيتها مجلوبة من بهلا لتباع في اسواق الباطنة ومطرح ومسقط وغيرها تعني ان فيها حركة تجارية نشيطة وانها مدينة غنية. اما نزوة فهي من حيث الحجم على الاقل في حجم صحار وان كانت اقل منها تهدما. وهي المصيف الذي غالبا ما يحل به الملك او السلطان (كما يسمى هنا) الثويني، وفي المدينة صناعة كبيرة للسكاكر الممتازة .

ولم اجد في الجزيرة العربية حضارة وطيدة الاركان وعالية مثل الحضارة التى وجدتها في عمان. فانك تجد فيها البيوت الحجرية المؤلفة من ثلاثة طوابق او اربعة ذات مداخل واسعة وممرات مقوسة وجدران مدهونة واثاث كثير يكفي كل الاغراض اما الضيافة وحسن اللقاء فهي ممتازة، وكذلك الحال في لطف الحديث ونظافة الملبس وزخرفته وأشياء كثيرة اخرى من نفس الطراز. وسأورد بعض نقاط قد تساعد على اعطاء صورة واضحة ومقبولة عن هؤلاء الناس .

ان لباس العمانيين يختلف كثيرا عن لباس النجديين الذي سبق وصفه. فهم

يلبسون بدلا من القميص الطويل مئزرا عريضا يأتزرون به ويمتد من الوسط الى الركبتين، وهو غالبا ما يكون مذيلا بالحرير ويلبس حول المتن وفوقه حلة طويلة من القطن الاحمر، وكثيرا ما تكون مزركشة بالحرير الازرق، وفوق هذه جميعها عباءة مطرزة بخيوط ذهبية ومصنوعة من وبر الجمال او الصوف الخفيف. اما الرأس فتغطيه عمامة كبيرة كثيرا ما تكون مصنوعة في الهند، اما النعل فهو احسن واقوى من نعال نجد وهو هنا لا غناء عنه لرطوبة التربة. ويضع كل رجل حر - وحتى العبيد اذا كانوا تابعين لموال اغنياء - فوق حزامه الجلدي المزركش خنجرا قصيرا ومعوجا مصنوعا مقبضه في اغلب الاحيان من حوافر الزرافة ومحلى بالذهب والفضة كما ان غمده محلي بالذهب والفضة. وقد رأيت خناجر مقابضها واغمادها من الفضة اكثر من تلك - ويستخدم هذا السلاح كثيرا للزينة وللقتال. ويلتف حول الخصر حزام غالبا ما يكون ابيض اللون وهو فوق الحزام الجلدي والخنجر، ويشكل مقبضه عقدة كعقدة السيف. وتستعمل العصي المحنية بدلا من العصي المستقيمة ومن اغلى العصي تلك التي تتخذ من خشب النبع الاصفر. والتدخين هنا اكثر منه في سوريا - وعلى ان اذكر قبل هذا ان التبغ هو احد المزروعات الرئيسية في هذه البلاد - وهو جيد ورخيص الا انه حار. وتكثر هنا المقاهي وتكثر النارجيلة الفارسية في المقاهي والبيوت. وانني لأعجب كيف ان نيبور بما عرف عنه من دقة متناهية يقول في مذكراته عن هذا الجزء من الجزيرة العربية انهم ينظرون الى التدخين نظرة سيئة . ولعل من بلغه ذلك كان من أتباع الوهابيين فعبر له عن مشاعره واتخذها مقياسا للحديث عن مشاعر الناس فى هذا البلد .

ويمتاز الجنس العماني بالمرح وحب المتع الاجتماعية والنشاط الصناعي والتجاري وهم ودعاء وعلى جانب كبير من المرح وحب الفكاهة. وتمتاز النساء بجمالهن الذائع الصيت، وقليل من المناطق الاسيوية التي تجود بمثل تلك النساء سواء من حيث رشاقة قدودهن او صباحة وجوههن وقدودهن اطول واجمل من المعتاد في شبه الجزيرة وليس الحجاب شائعا بينهن. وعندما تهاجم الديار فان اهل عمان يستبسلون في الدفاع كما حدث في حروبهم عندما غزاهم الوهابيون وعندما كانت تنشب بعض المناوشات المتفرقة مع الكتائب الهندية، ولكنهم اكثر شغفا بالتجارة والصناعة والزراعة وان كانوا اشجع من اهل الاحساء .

ومقاطعة الظهيرة التي تقع على الطرف الجنوبي الغربي من الجبل الأخضر، اكثر اجدابا من بقية السلطنة وتبدو على وجوه سكانها مظاهر شبه همجية، ويسيرون في معظم الأحيان وقد

تسلحوا بالحراب القصيرة او النبال والخنجر الذي يرافق الحزام دائما، ويتضح انهم افقر واقل حضارة من سكان الباطنة. ولكن اكثر الناس توحشا هم سكان رؤوس الجبال اي رأس مسندم نفسه، ويكاد جيرانهم لا يفهمون لهجتهم الجبلية ـ أما القادم من الغرب فهو لا يفهمها أبدا.

ويمكنني ان اشير هنا الى ان اللهجة السائدة من اللغة العربية في عمان كلها تختلف عن اللهجة التي في نجد بعض الاختلاف حيث يستعمل العامة نفس اللغة الواردة في القرآن دون اي انحراف عنها بكل ما فيها من تصريف واعراب مما كان يظن في حين من الزمن انه لا يوجد الا في اذهان النحويين ولكن اللغة الحية ولغة الكلام في وسط الجزيرة العربية تتصف بذلك.

وعندما كنت في عمان كنت ادهش عندما اذكر بكثير من العبارات والاقوال التي وردت في شعر شعراء الجاهلية وكم من كلمات مهجورة في اماكن اخرى ولكنها دارجة هنا على السنة السكان بينما هي تحير الزائرين من النجديين. اما الدقة النحوية فليست هنا بمثل ما هي عليه في وسط الجزيرة، مع ان التصريف صحيح تماما. ولغتهم هي اللغة اليمانية القديمة ولكنها ابسط من لغة نجد والحجاز واقدم منها.

ويكثر الشعر والشعراء وقد يزيدون عن امثالهم في الاحساء، ولكن شكل النظم يسمح بتغيير كبير. فان الشعراء ينظمون طبقا لقوانين الوزن والقافية التي يعترف بها شعراء العرب ويلتزمونها حتى يومنا هذا في سوريا وبغداد ومصر وغيرها، ويستبدل بعض الشعراء في التفعيلة كمية المقاطع بمقطع قصير، اما القافية فلا تسير سيرا منتظما وانما تسير سيرا متعاقبا تشبه بذلك قصائد البلاد المزدوجة عندنا. وطول الابيات واحد في القصيدة الواحدة ولكنه يختلف من قصيدة لاخرى. ويسمون هذا النوع من النظم بالشعر «النبطي» وذلك تمييزا له عن ذلك النوع الاكثر شيوعا والذي يسمونه «شعر العرب».

ولم اجد شعرا نبطيا ولا ما يحمل اسم «النبط» حتى اقتربت من عمان، وهو شائع كثيرا في هذا القسم من الجزيرة العربية. ولم يستطع احد ان يقول لي شيئا دقيقا عن تاريخ ادخاله او اصله او من أين اشتق اسمه.

وهناك صفة اخرى تمتاز بها هذه المنطقة وهي كثرة الزنوج، وهي نتيجة رئيسية لتجارة الرق التي بدأت منذ عهد طويل مع السواحل الشرقية لافريقيا ومن هذه الجموع السوداء التي كانت تستوردها عمان بقى نصفها مقيما في عمان وكثير ممن بقي حصل على حريته ـ وهذا يحدث عادة عند موت مولاهم ـ بفضل وصية او قبل الوصية. ثم استقروا في البلاد وتزوجوا وتملكوا ارضا، وهم الذين اعتقوا فالعبودية

خفيفة جدا هنا - وهي في الواقع ليست سوى الاسم - ولا يلاقي العبد شيئا من الاحتقار وسوء المعاملة والتقييد التي يلاقيها اخوانه السود حتى بعد ان يتحرروا في بعض البلدان ولذا لا يجدون سببا يحملهم على الحسرة على وطنهم الاصلي. ولا يحاولون ابدا الا في حالات استثنائية ان يعودوا الى وطنهم رغم وجود الفرص دائما للعودة. والامر على العكس من ذلك، اذ من المستحيل ان تقنعهم بترك عمان. وهم يمتزجون احيانا بالبيض ويتجمعون احيانا في قرى منفصلة - وليس الزواج بين العمانيين والزنوج الاحرار شائعا كثيرا وان كان ليس نادرا ابدا. وقد قيل لي انهم يؤلفون اغلبية في الجزء الجنوبي الشرقي من المملكة والى الاسفل من رأس الحد، ولما كانت الحكومة سواء محلية او عامة وراثية في جميع عمان، فليس للسود نصيب فيها.

أما السكان الحميريون الذين يربطون ما بين عمان وحضرموت على الساحل الجنوبي فيبدو انهم جالية حبشية قديمة، ويختلفون عن الزنوج وعن العرب.

أما مناخ عمان فهو حار جدا ومساو في حرارته لحرارة بومبي وكونكون التي تجاورها وقد رأيت بنفسي مشمشا ناضجا معدا للبيع في سوق مسقط في نهاية شهر مارس اما العنب فينضج في نهاية شهر ابريل. وفي الصيف يصعد الموسرون الى مرتفعات الجبل الاخضر ويتركون الساحل الحار، وتكثر المزروعات في الجبل الاخضر وكلما صعدنا فيه انخفضت درجة الحرارة وكان مناسبا أكثر من الوجهة الصحية. وقد تحدث القبطان ولسند عن سقوط الثلوج على قمم الجبال في الشتاء. واظن انه يعني بالثلج البرد، لان ما وصفه لي السكان هو البرد وان كنت لم اشاهده، وبما انني اعرف انه يسقط فوق جبل طويق في نجد وهو اقل ارتفاعا من الجبل الاخضر بكثير، فلا ارى سببا يمنع البرد من السقوط على الجبل الاخضر الذي يبلغ ارتفاعه ٦٠٠٠ قدم عن سطح البحر. وقد كان السكان يجهلون اسم الثلج نفسه وعندما وصفته لهم اكدوا لي جميعا بأنهم يشاهدون مثل تلك الظاهرة ويسمون ما يسقط بالبرد والجليد وهم يعرفونه. وعندما بدا لي الجبل الاخضر في شهر فبراير لم اتبين ثلوجا فوق قممه. بالرغم من ان الشتاء كان عاصفا وقارسا اكثر من المعتاد.

اما البدو فقلة في عمان - ولا يوجد احد منهم في الباطنة او كلحات او رؤوس الجبال ويوجد عدد قليل منهم في منطقة الجبل الاخضر. وهناك عدد أكثر فى صور وبلاد ابي علي والجيلان واكثر عدد منهم - نسبيا اذ لا يمكن ان يحصوا - يتنقل في منطقة الظهيرة. وكثيرا ما يقيم السكان الثابتون في عمان ولا سيما الزنوج منهم في اكواخ مبنية من سعف

النخل او في خيام بدلا من البيوت وذلك لحرارة المناخ الشديدة. ويبدو جميع السكان من سكان القرى والمدن والبيض والسود عندما يخرجون في رحلة او غزو وقد تنكبوا اسلحتهم يبدون في عين الاوروبي كالبدو تماما. ونتيجة لهذا يتحدث عنهم الاوروبيون وكأنهم بدو ولعل هذا هو مصدر الخطأ الشائع وهو اعتبار الجزء الاكبر من العرب بدوا. مضافا الى ذلك النظام القبلي والروح العشائرية السائدة في الجزيرة العربية فأسماء «بنو ابي علي» و«بنوتميم» و«بنوفزارة» وغيرها شائعة كثيرا في البلاد فعندما يسمع الاوروبي هذه الاسماء ينسى انه ليس من الضروري ان تكون جميع «القبائل» او العشائر بدوية ـ فالأمر ابعد من ذلك فكلمة «بني» أو اولاد تطلق ايضا على سكان المدينة او القرية كبني كنانة .

ويقيم عدد كبير من الهنود واللوشيين (سكان لوديانا) في مرافىء عمان. ويقيم عدد قليل من البارسيين واليهود في مدينتي مسقط ومطرح. ويسود التسامح وتزاول كل فئة طقوسها الدينية ومعتقداتها دون ان تتدخل بها فئة اخرى. وفي الحقيقة ان الملامح العامة لعمان سواء كانت طبيعية او خلقية لتغاير ملامح نجد كل المغايرة ولا ينظرون بعين الريبة الا للأوروبيين ولعلهم على حق في ذلك .

وتتوقف اعمال الغوص الى الشرق من رأس مسندم، فالبحر هنا عميق وعاصف في معظم الاحيان، وبه انواع اقل من السمك من انواع سمك «بحر البنات» وتوجد افواج كثيرة من سمك الاسبراط ومن سمك المكريل على السواحل. ويكثر المرجان الذي تحتكره الحكومة .

وقد تكلمت عن المحاصيل التي تنتجها الارض. اما الهجائن وهي من احسن الانواع وكذلك الحمير فتشبه تلك الانواع التي سبق ان وصفناها عند الحديث عن الاحساء وهي مادة للتصدير. وقد قيل لي ان الزرافة توجد في الواحات التي تتوسط المناطق واشك في صحة كلام محدثي. ومن المحاصيل الزراعية التي تستحق الذكر البطاطا الحلوة وهى نفس البطاطا التى تزرع فى الهند ومن المحاصيل الزراعية الهامة القهوة وقصب السكر والقطن الاحمر .

ومملكة عمان تتألف من ١٢ مقاطعة عدا سوقطرة وزنجبار والساحل الافريقى الشرقى وهى ١ ـ قطر وتمتد من عجير الى ورقة وعاصمتها البيضاء وتشمل أيضا ساحل بنو ياس وعاصمته صور .

٢ ـ الشارجة الممتدة من ابى ظبى الى رأس الخيمة ، ٣ ـ رؤوس الجبال ، ٤ ـ الكلحات وعاصمتها دبى وتقع هذه الولايات الثلاث تحت حكم خالد بن صقر ، ٥ ـ الخليج ويمتد من رأس بستانه الى جاسك ومعه جزر الكشم لارج وهرمز وغيرها وعاصمتها لنجة ، ٦ ـ الباطنه وتمتد من فاكان فى برقة

وعاصمتها صور ، ٧ ـ الظهيرة وتمتد من البريمي الى جبرين ، ٨ ـ الجبل الاخضر ويمتد من قلعة اللوحة الى سمند وعاصمتها نزوة وبهلا ، ٩ ـ بلاد مسقط من برقة الى رأس الجيران وعاصمتها مسقط ، ١٠ ـ بلاد صور من رأس حيران الى رأس الحد وعاصمتها صور ، ١١ ـ جيلان ، ١٢ ـ الساحل الممتد من رأس الحد الى ظفار .

ويزيد مجموع السكان عن مليونين اما القوة العسكرية فتتراوح بين ٥٠ و٦٠ الف جندي. ولقد امضيت في هذه البلاد ما يزيد على شهرين قضيت معظمهما في الشارجة وصحار ومطرح ومسقط والمناطق المجاورة لها. ولكنني اصبت في الاسبوع الاخير من مارس سنة ١٨٦٣ بحمى شديدة بينما كنت في مطرح قادما من بو شهر الذى يقع على الخليج واننى مدين بشفائى ورجوعي الاخير الى بغداد فى نهاية شهر ابريل للعناية الطبية والعطف الكريم الذى لقيته من القبطان سلبي الذي يعمل فى الاسطول الهندي .